

في الفلّسفة الإسلاميّة

(١)

فلّسفة الأُصول

الحرّيّة - العدل

مُضر آل أحمد

في الفلسفة الإسلامية

(١)

فَلَسَفَةُ الْأُصُولِ

الحرية-العدل

مُضَرَّ آلِ أَحْمَدِ

لا يحقّ للأفراد والمؤسّسات التربّح من هذا
العمل

مُضَرَّرٌ أَلِ الْأَمِيرِ

أيار- ٢٠١٥

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

٢٠١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قالوا يا صالحُ قد كُنتَ فينا مرجوًّا قبلَ هذا أَتَنتَهِانا أَن
نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَإِنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعونا إِلَيْهِ
مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾ قالَ يا قومِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُمْ عَلَي بَينَةٍ مِنْ
رَبِّي وَأَناي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ
فما تَزِيدونني غَيرَ نَحْسيرٍ ﴿٦٣﴾ هود.

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا
أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ
يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ
الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ هود.

الى كل مفكر حر لم يقبل أن يكون وعاءاً ينقل أفكار
غيره دون ان يشكك بها ويسأل ويبحث،

الى كل من رفض ان يكون نسخة مطابقة عن أبناء
مجتمعه او أفراد عائلته،

الى كل من آمن أنه انسان عاقل قادر على تسيّد نفسه و
العمل بأفكاره ثم تحمل عواقب تلك الأفكار،

والى كل من عمل على ترسيخ تلکم الحرية وذلك
الاختلاف، ونشر روح المسؤولية،

أهدي هذا الجهد المتواضع.

بعد شكر الله تعالى لفضله، أتقدم بالشكر الجزيل
للدكتور محمد شحرور الذي لولاه ما كنتُ
لأرى في الإسلام فلسفته التي أرى؛ والذي،
بمنهجه الذي وضع، بين طرق البحث وسلّم
مفاتيحها لكثير من الباحثين الإسلاميين
المعاصرين، فله أرجو الصحة والعافية، وأسأل
الله أن يجازيه وإيَّاي، على نيّاتنا، جزاءً حسناً؛

والشكرُ موصول لكل من ساهم، بتقديم نصح
أو اقتراح تعديل، في إخراج هذا العمل..

مقدمة

على المسلمين التخلص من التناقضات التي تعتمل في دواخلهم. ولربما اعتاد المسلمون منذ زمن على ايواء الشيء ونقيضه في حيز واحد من ادمغتهم دون أن يروا في ذلك مشكلا، ومع الأسف، فإن ذلك غير ممكن. فلا يمكن أن نشجب المنظمات الإرهابية ونعتنق الفقه الذي يؤدلج لها في وقت واحد. ولا يمكن أن نحارب الغرب ونكفر مليارات الناس، ونعيش على فضلات انتاجهم في نفس الوقت. علينا اختيار أحد أمرين، إما أن نعتنق الفقه التاريخي ونعيش في الماضي ونرضى بالأوصاف الصحيحة لعيشنا من تخلف، وجهل، ورجعية؛ ونُسلم بأن الإسلام جاء الى منطقة معينة لفترة زمنية محددة وليس صالحا في غير ذلك المكان ولا بعد ذلك الزمان؛ أو أن نعيش الحاضر بكل معطياته العلمية والثقافية، ونقبل الإسلام على أنه دين جاء للبشرية جمعاء؛ وليس الإسلام الذي ورثناه صالحا البتة لثاني الأمرين. أمّا ما قد يقوله البعض من أن الدين مستقل عن العلوم

وتقلباتها، فهذا كلام من لم يعرف قيمة العلم في دين الإسلام، وليس العلم الشرعي فقط كما يحاول البعض اختزال العلوم فيه، ومثل اولئك ينشئون لنا جيلا من العلماء و العامة ممن يدّعي ويصدّق، رغم ما توصل اليه العلم، بأنّ الأرض مسطحة. ولأننا نرى في التنزيل الحكيم دقة لا يراها الشعراء ورجال الدين، فإننا نتعامل معه على أنه علم نستخدم في دراسته الأدوات العلمية المتوفرة في عصرنا، وليبق من يريد العيش في الماضي خارج الزمن. ولأنّ العلوم متغيرة متطورة في ليلة وضحاها، فإننا لا ندّعي بأن ما نقدمه للناس "هو الحقّ من ربكم"، كما يدّعي من عوّد عقله على الجمود الفكري والتفكير الخطّي. ولكننا نبين للناس ما نظنّ أنه الصحيح في إطار الأدوات المعرفية المتوفرة لدينا، ونجتهد في بحثنا وتقديم الأدلة، فلسنا ممّن يعطي رأيه للناس في مسألة ويتبعه بقوله "هذا هو الدين، فأحجم عن السؤال ونفّذ"، فلا توكيل لدينا من الله تعالى لنحيط بتمام مقصده، وإن فهمنا مسألة فإننا نعترف بأنّ مسائل أخرى قد غابت عن

مدار كنا. ولهذا فإنَّ اجتهادنا توفيق من الله إن صحَّ، وهو ما تبدى لنا بعد بحث ودراسة، نعود عنه إن عرفنا ما هو أصح منه؛ وكل ذلك لا يخرج عن اطار المنهجية العلمية التي استفادت من تراكم العلوم والأبحاث والدراسات، وبما لا يقبل غير صلاح الإنسان وعيشه الكريم غاية، ولا يناقض العقل أو يقوِّض دعائمه.

إنَّ من أكثر آيات التنزيل الحكيم التي جنت عليها كتب التراث الإسلامي هي {..اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..} {٣-المائدة. فتفسيرات هذه الآية البعيدة عن معناها قلبت مفهوم الدين الإسلامي بالكامل، وأفرغته من محتواه. وكما هو واضح في الآية فإنَّ الإسلام هو الدين الذي رضيه الله لنا؛ وهو الدين الذي يعتبره الله دينا وما غيره ليس بدين، قال تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ..} {١٩-آل عمران. ومن لقي الله بدين غير دين الإسلام لن يقبله الله منه، {وَمَنْ يَبْتَغِ

غَيْرِ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
الْخَاسِرِينَ {٨٥- آل عمران}. وسيكون خاسراً في الآخرة مهما قدم
من عمل صالح ومهما بلغ إحسانه.

فما هو الإسلام؟

إنَّ الإسلام كما تخبرنا به كتب التراث هو أركانٌ خمسة^١، من أقامها
وقام بها يكون قد أسلم إسلاماً صحيحاً لا غبار عليه، وهي:

^١ لا ندعي أننا نعلم، أو غيرنا، من يدخل النار ومن يُزحزح عنها؛ ولا من يتقبل الله منه عمله
ولا من يجعل الله عمله هباءً. إنها هذه هي القاعدة العامة في التنزيل الحكيم (من يبتغ غير الإسلام
ديناً فلن يُقبل منه)، وهذه الآية تخصّ من يحاول جاهداً الصاق العلل، وتحريف الآيات الكريبات
وأصول الإسلام وتحريفه فاصداً متعمداً ليبرر اختيار دين على هواه، وذلك ما عبّر عنه فعل
(يبتغي).

^٢ أما أركان الإيمان (الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتب، والنبين، والقدر)، فلا
وجود لمثل هذه الأركان في كتاب الله العزيز، وإنما هنالك ذكر للبر: قال تعالى {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا
وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ
وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} ١٧٧- البقرة. وهذه الآية توضح لنا أعمال البر والتي

١ - شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله

٢ - إقامة الصلاة

٣ - إيتاء الزكاة

٤ - صوم رمضان

٥ - حج البيت

هكذا وصلتنا وهكذا تلقاها الناس وهكذا صُبت في رؤوس الأطفال واليافعين. ومن الركن الأول يتبين لنا أن الإسلام لا يتم دون الشهادة للنبي الكريم محمد بالرسالة. وبذلك لا يمكن أن يكون من لم يسمع بمحمد أو يعرفه مسلماً، لأنه لا يستطيع الشهادة بما لم يشهده أو يسمع به. ولكن، قال تعالى:

تشمل الاسلام والإيمان معا. فالبر هو الايمان بالخالق المعبود، والغيبيات، والبراهين، وتصديق ناقلي تلك البراهين، والتصدق على من فضلنا الله عليهم في الرزق، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهود، والصبر في الأزمات والمصائب والحروب. وبمجموع الأعمال تلك يكون الإنسان صادقا في ايمانه مجتهدا فيه. وأما القدر فلا ذكر له على أنه ركنٌ يجب على الناس ان يؤمنوا به، وهو مما سيبحثه الفصل الثاني من هذا الكتاب.

{وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} ١٣٢-البقرة.

{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}
٥٢-آل عمران.

{وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا
وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} ١١١-المائدة.

{وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن
كُنتُمْ مُسْلِمِينَ} ٨٤-يونس.

فالمذكورون في هذه الآيات، وغيرها، لم يشهدوا لمحمد بالرسالة،
وبذلك يكونون قد تركوا نصف الركن الأول وهو الشهادتين؛ فكيف
يمكن أن يكونوا مسلمين؟

قد يطيل الفقهاء القول في هذه الإشكالية البسيطة، ذات الأثر العظيم، فيؤلفوا كتباً ومجلدات في محاولة للربط النص الإلهي في كل موضع يرد فيه لفظ (أسلم) أو مشتقاته ليُبقوا على ما وصلنا من الإسلام الموروث دونما تشكيك. أو يمكننا أن نركن إلى مبدأ بسيط اسمه **نصل أو كام**^٣، والذي خلاصته: الاحتمال الأبسط هو الأقرب حتى يثبت غير ذلك. وأبسط الاحتمالات، والتي يوافق على قابلية حدوثها أهل التراث ولكنهم يرفضون حدوثها قاطعين، هو أن ناقل أحاديث أركان الإسلام أو جامعها قد أخفقوا، فاختلط عليهم الأمر فبدلوا كلمة مكان أخرى، أو وضعوا حديثاً لم يقله النبي الكريم^٤.

ولنا على هذا المفهوم المتداول للإسلام مأخذان:-

^٣ نصل أو كام أو موس أو كام أو شفرة أو كام: هو مبدأ طوره الراهب والفيلسوف الفرنسي سيكيني ويليام أو كام. وهو منهج علمي يرجح صحة الفرضية الأسهل والتي لا تحتاج إلى كدس كبير من الإثباتات والحجج للتدليل على صحتها.

^٤ أركان الإسلام المتداولة جاءت عن طريق ناقل الحديث، ولا رابط بينها وبين الإسلام في كتاب الله تعالى.

الأول: أنّ الإسلام بشكله الحالي لا يعدو عن كونه ترديد عبارة، والقيام بأعمال وحركات معينة. أي أنّ الإسلام بشكله هذا مفرغ من القيم والأخلاق، وليس ذلك بدين يرتضيه الله للناس، وليس بالدين الذي يعتبره الله دينه الذي اصطفى لعباده.

الثاني: أنّ الإسلام الذي لا يكمل إلا بالأركان الخمسة تلك، يُقصي جميع الأمم السابقة، وكثير من الأمم اللاحقة، ممن لم يشهدوا لمحمد بالرسالة، ولم يقيموا الصلاة، ولم يؤتوا الزكاة، ولم يصوموا رمضان، ولم يحجّوا البيت. ومن بين تلك الأمم الكثير من الأنبياء والصالحين والعلماء والحواريين والأخبار ممن دخلوا إسلام الله لكنّ إسلام التراث أبعدهم وأخرجهم من دائرته؛ فكان غير بعيد عن وصف (دانتلي) لساكني دائرة الجحيم الأولى في كوميدته[°].

[°] في كتاب الإيطالي دانتلي ألبيغري، الكوميديا الإلهية، دائرة الجحيم الأولى هي مستقر كل من لم يتم تعميده على أنه نصراني، وإن كان قد عمل الأعمال الصالحة، وأفعال الخير، وإن كان عالما أو فيلسوفا أو رجلا صالحا.

أما الإسلام كما نفهمه من كتاب الله تعالى فيبدأ بتوحيد الله وعبادته،
قال تعالى:

{فَالِمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} ١٤-هود.

{قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}
١٠٨-الأنبياء.

{إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ
شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} ٩١-النمل.

{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنَّا
وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} ٤٦-العنكبوت.

{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} ١١-١٢- الزُّمَرِ.

فأرس الإسلام الاعتراف بألوهية الله، ثم يلحق ذلك الإيمان بالغيب، ويبدأ الإسلام بطرح فلسفته الأخلاقية التي يقوم عليها ليقدم نفسه دينا يليق بأن يختاره الله ويرضاه لعباده. وهذا ما سيحاول هذا الكتاب التمهيد له و مقارنته والتركيز عليه، فهي، أي فلسفة الإسلام الأخلاقية، من دعائم الإسلام التي صاحبت الإيمان بالله وكانت، من بعد الإيمان بالله، شرطا وركيزة لقبول الدين. قال تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ٦٢- البقرة.

فالإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح كفيلا بجعل الإنسان لا يخشى على نفسه الحزن وينتظر أجره عند ربه.

وقال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} ٥٧-آل عمران.

وتخبرنا هذه الآية عما سيكون مع أتباع نبي الله عيسى بعد أن توفاه الله. وهذا هو الإسلام كما نفهمه من كتاب الله العزيز دونما حاجة الى تأييد من خارجه او عَوَز لشرح وتفصيل غير ما جاء كاملاً في آياته. ولأنَّ رأس الإسلام وهو توحيد الله وعبادته قد شرحه وأطنب في تبيانه كثيرون، وكذلك قد فعلوا مع الإيـمان باليوم الآخر كجزء من الإيـمان بالغيب، فإن ما سنبحث فيه، بعد وضع اساساته في هذا الكتاب، هو الأخلاق والقيم في الإسلام، وهو ما أظنَّ أنَّ أتباع النبي

^٦ يكون معنى "الإسلام" في هذا الكتاب وما تلاه هو الإسلام المذكور في التنزيل الحكيم، وهو ما شرحنا جزءاً منه في هذه المقدمة، ويتوضح المفهوم الكامل للإسلام كلما تعمقنا في البحث في قيمه وتوصياته ومنهجيـاته الأخلاقية. ولن تكون أي اشارة للفلسفة الإسلامية بمعناها التقليدي والتي كان يجدر أن يكون اسمها "فلسفة المسلمين"، وإنما ستعبر، في هذا الكتاب وما يأتي بعده، عما فهمناه من فلسفة الإسلام الوارد في التنزيل الحكيم. وهذا ينبغي الإشارة الى أن "المسلمين" سشير الى أتباع الدين الإسلامي الوارد في التنزيل الحكيم (من آمن بالله، والغيب، وعمل الصالحات)، ولن تشير بأي حال من الأحوال الى "المسلمين" بالمفهوم السائد. فمن نسمةم اليوم "مسلمين"، يطلق عليهم التنزيل الحكيم إسم "المؤمنين" أو "الذين آمنوا"، مستندين بذلك على كتاب الله الذي خاطب محمدا واصفا رسالته بأنها الإيـمان وهي جزء من دين الإسلام:

محمد في أمس الحاجة اليه، ولأيماننا العميق بأنّ الصحوّة والنهضة و
غيرهما من العناوين لا تكونان حقيقيتين إلا اذا كانتا معنويتين
فكريتين وليستا حركات تؤدى وجوامع تُبنى.

ومن هنا تكون البداية في وضع أصول للإسلام وإنطلاقة، إن شاء
الله، منها تجاه وضع فلسفة اسلامية متكاملة تكون ندا عمليا واقعيا
للفلسفات المثالية الحاملة، والفلسفات المادية الجافّة.

{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا
نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ٥٢-الشورى. ولأن ما يميّز
المؤمنين هو إبتاعهم رسول الله محمد -ولتفادي الخلط والإشكال- سنشير إليهم بـ "أتباع محمد"،
أو "المحمديين". ولشرح أوسع للتفريق بين الإسلام والإيمان حري بالقارئ أن يرجع الى كتاب
الدكتور محمد شعور "الإسلام والإيمان: منظومة القيم" الذي يستفيض فيه الدكتور شعور في
بيان المفهومين وايضاح الخلط الحاصل بينهما.

الفصل الأول: الدين^٧

الدِّينُ في اللغة: وردت لفظة (الدِّين) المشتقة من الفعل الثلاثي (دَانَ)

بمعان عدة أشهرها

دَانَ: بمعنى جازى، وحاسَب، ومَلَك ويأتي متعديا بنفسه: دَانَهُ.

دَانَ: بمعنى أطاعَ، وخَضَعَ ويأتي متعديا باللام: دَانَ له.

دَانَ: بمعنى اعتَقَدَ، وآمَنَ به، واعتادَ واتخذَ مذهباً ويأتي متعديا بالباء:

دَانَ به.

^٧ على الرغم من أنَّ الكتاب يتناول، كما هو موضح على غلافه، الموضوعين الأساسيين الذين تقوم عليها فلسفة الإسلام (الحرية، والعدل)، إلا أن أفراد فصل لمناقشة موضوع الدين وما هيئته كان أمرا ضروريا، ذلك أننا نفهم الدين فهماً يتعد عن الفهم المتعارف عليه شيئا كثيرا. ولأنَّ الحرية والعدل اساسا الدين، كان الواجب أن نقدم شرحا يسيرا للدين قبل أن نبدأ تفصيل أساسيه.

وقد وردَ الفعلَ (دَانَ) ومشتقاته في التنزيل الحكيم بهذه المعاني وقياسها. أمّا ما سنبحث فيه ونتبناه في هذا الموضوع هو المعنى الثالث (بمعنى الإعتقاد...).

لقد تم تعريف الدين اصطلاحاً تعاريف عديدة تدور حول المعتقد الذي يحمله الإنسان ولكن من وجهات نظر مختلفة. ويمكن توصيف الدين عند اليهود والمسيحيين والمحمديين بأنه إيمان بخالق وإله، وتقديس أو تأليه لمن اختاره ذلك الخالق، وحمل قيم أخلاقية معينة، وأداء شعائر وطقوس محددة. أمّا التعريف الذي سنختاره للدين هو: منظومة معتقدات تُنظّم حياة الناس المادية، وهو الفلسفة الروحية التي اختارها الله لعباده لتجبيهم عن اسئلة شغلهم منذ بداية تاريخهم، ولكي يعيشوا حياتهم وفقها ويتحرروا بها من باقي الفلسفات. قال تعالى:

{ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ } ١٣٢-البقرة. ومن الواضح، وكما فصلت مقدمة الكتاب، أنّ الدين في هذه الآية لا يعني الشعائر والطقوس، وإنما الحديث عن فلسفة حياة يعيش الإنسان بها ويحاول

عن طريقها الإجابة عن الأسئلة التي شغلته، والتحرر من العبودية التي أقرتها الفلسفات الأخرى، للإنسان تارة، ولكائنات الطبيعة تارة أخرى. إن فلسفة الإسلام لم تكن غريبة عن الناس، وإنما كانت موجودة الى جانب فلسفات أخرى، وذلك أبانه فعل (الاصطفاء) في الآية السابقة، ولكن تلك الفلسفة كانت معتمة غير واضحة على محمد وأتباعه فوصفها الله بأنها فلسفة جديدة شرعها لهم (بدأها لهم)، وهي جديدة على الذين آمنوا، لكنها هي نفسها الفلسفة التي اختارها لنوح وإبراهيم ومن بعدهم. {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} ١٣-الشورى. وهي الفلسفة التي دعا اليها محمد فكان، بالنسبة لأتباعه، أول المسلمين، {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

المُسْلِمِينَ} ١٢، ١١- الزُمر. ولم يلقِ اللهُ الإسلامَ على إبراهيم^١ القاءً عندما كان غافلاً يقضي وقته بالمتعة وتحقيق جميع رغبات نفسه. إن الله اختار إبراهيم بعد أن وجدته نابهاً غير راضٍ بتفسيرات قومه للوجود، فأخذ يبحث عن فلسفة يعتنقها.

قال تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} ١٢٤- البقرة. أمّا الكلمات^٢ التي أُبتلي بها إبراهيم وبدأ بعد

^١ تأتي خصوصية إبراهيم لأنه بحث عن الله فوجده الله واصطفاه. ولأن إبراهيم هو من بدأ الإسلام وتمت إضافة القيم اليه بالرسالات المتتابعة حتى وصوله الى غايته مع رسالة محمد، ومع أن نوحا- وهو سابق لإبراهيم- كان مسلماً بالعمل، إلا أن إبراهيم هو من سمى اتباع هذه الفلسفة بالمسلمين {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا لِّبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}.. ٧٨- الحج

^٢ مفردات الوجود (الشمس، القمر، الماء.. الخ) وقوانينه هي كلمات الله. قال تعالى: {وَلَا تُبَدِّلْ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ} ٣٤- الانعام. {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ١١٥- الانعام. {هُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ} ٦٤- يونس.

ذلك بالتشكيك بفلسفة قومه والبحث عن الخالق، هي ما كان يعبد قومه من الكواكب والنجوم.

قال تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِيَّيَ بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {٧٦-٧٩-الأنعام}. فقد تفكّر ابراهيم في الخلق، وعرف أن فلسفة قومه ليست الفلسفة الصحيحة رغم أنه لم يعلم ما

أما القول بأن كلمات الله هي كتابه فلا يستقيم. فالله تعالى قد أشار الى التنزيل الحكيم، ما نُزِلَ على محمد او ما أنزل على من قبله، بأنه (كلامه) ولم يسمه (كلماته). قال تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {٧٥-البقرة}.

{قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} {١٤٤} ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} {١٤٥-الاعراف}.

هي الفلسفة الحقّة التي ينبغي إتباعها. فأخذ إبراهيم يبحث كما فعل فلاسفة الإغريق الأوائل، من خلق الكون؟ من هورب هذا الكون؟ وبدأ يختبر أرباب قومه على طريقة التجربة والإقصاء، فجرّب احد الكواكب حتى غاب الكوكب فعرف أنه يسير وفق قانون ولا يستحق أن يكون ربّاً؛ ثم اختار القمر بنوره وجماله فلمّا طلعت الشمس بضياؤها غاب القمر وفقد نوره فتحوّل ابراهيم الى اختبار الشمس وقد أعجبه كبر حجمها وسطوع ضوئها، وهو يعلم في كل تقلباته أن هنالك كينونة أكبر من هذه الأجرام التي يعبدها قومه، لكنه أثر أن يتركها متأكدا وهو على بينة. ثم تبيّن له أن كل ما كان يعبد قومه انها يسير وفق قوانين وليس لتلك المعبودات الخيرة في طلوعها وأفولها، وأن فلسفة قومه وفهمهم للخلق ليس نابعا الا من جهلهم واعتمادهم على ما حسّوه بحواسهم ولم تستطع عقولهم أن ترى أبعد من ذلك. وتبرّأ ابراهيم من فلسفة قومه المادية ووجه وجهه لخالق السماوات والأرض. ولكنّ ابراهيم لم يؤمن ايمانا كسولا وإنما آمن بفلسفة الإسلام وهو لبيب عاقل حنيف، يتحرك بين الفلسفات والأفكار فيختار ما صلح منها ويدع ما لا يناسب الفلسفة التي اعتنقها.

إنّ دين الإسلام فلسفة تجيب عن أهمّ الاسئلة التي راودت الفلاسفة على مر العصور. فهو يبدأ بالتدليل على الخالق المتعال، ثم يدعو الناس للإيمان باليوم الآخر وهذا جزء من دعوته الى الايمان بما غاب عن الإنسان وعن وسائل حسّنه وقياسه، ثم يتوجه بعد ذلك الى وضع الأسس العامة للفلسفة الأخلاقية والقيم التي ينبغي أن يعيش وفقها بنو الإنسان ليتمتعوا بحياة تحفظ حريّاتهم وحقوقهم وأموالهم وأنفسهم.

و لطالما كانت الفلسفات التي تستثني احد مجالات البحث الثلاثة تلك، الوجود وكيف وُجد، والغيب (الميتافيزيقيا)، والأخلاق والقيم، ضمن الموضوعات التي تناقشها وتبحث فيها فلسفات هشة ركيكة لا ترتقي الى أن تكون فلسفات تُعتنق، وإنما مجرد ردود فعل على أزمة أو كارثة بعينها، أو نظام اخلاقي او قانوني متسلط.

إنّ الآية {..اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورَضيتُ لكم الإسلامَ دينًا..}٣-المائدة. تخبرنا بأن الدين قد كَمُل، وحقيق أنّ هذه الآية لم تكن آخر ما نزل من كلام الله، ولكنها

آخر ما نزل في الإسلام. أي أن هذه الآية قد أكملت الفلسفة الإسلامية التي بدأت مع إبراهيم^{١١}، وتمت بها نعمة الله على الناس برضاه الإسلام دينا (فلسفة) كاملاً يكون الناس فيه حنفاء أحرار يعبدون الله فيطيعونه ويعصونه، ويؤدون الشعائر ويسهون عنها، لكنهم ملتزمون بهذه المنظومة العقديّة التي تضمن لهم حياة كريمة.

وإليك المتعدون عن فلسفة إبراهيم جهلاً وكسلاً، إنما يستخفون بأنفسهم ويُنزلون الروح التي نُفخت فيهم منزلاً لا يرقى الى مستوى التكريم الذي كرمها الله. قال تعالى: **{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}** {١٣٠-البقرة.

^{١١} ليس اختيار الألفاظ في الآية، ولا في غيرها، عشوائياً يراد به جمال النظم، فلسنا أمام قصيدة شعرية، وجمال هذا النظم في دقته. فالله قد أكمل الدين، ولم يُتّمه، وأتمّ النعمة ولم يكملها. فإكمال الشيء هو إتمامه بصورة منقطعة: **{..فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ..}** {١٩٦-البقرة. وإتمام الشيء هو إكماله بغير انقطاع: **{..وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ..}** {١٨٧-البقرة. ولهذا فإن الله أكمل الدين الإسلامي برسالة محمد، وأما نعمة الله فكملت على الناس تامة غير منقطعة عنهم.

وأكثر اولئك المتبعدين عن فلسفة ابراهيم يدعون وصل ابراهيم وفلسفته. لكنهم لا يتمون الى ابراهيم وإنما يجرون إبراهيم وينسبونه اليهم والى فلسفاتهم الشخصية وأراءهم الملتوية عن الوجود ومقتضياته.

قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ٦٧- آل عمران. وليس ابراهيم محمدياً أيضاً، فهو حنيف مسلم وعلى أهل الملل إتباع دين ابراهيم وليس العكس^{١١}. ويجبر التنزيل الحكيم عن أحق الناس بالانتساب الى ابراهيم فيقول: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ

^{١١} وهذا الاشكال لم يزل حاضرا منذ عهد محمد حتى وقتنا الحالي، فاليهود والمسيحيون والمحمديون كلهم يدعون أن الحق معهم وأن الأنبياء إنما يتبعون دينهم. ولم يفرق التنزيل الحكيم بين هذه الملل وإنما حلّ الإشكال بصورة قاطعة واضحة تسري على الناس أجمعين من كان منهم نبيا أو رسولا أو تابعا لهذا أو ذاك: {لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} ١٢٣-١٢٥- النساء. فالحق إتباع دين ابراهيم ومولته وليس جعل ابراهيم تبعا لهذا أو ذاك.

اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ {٦٨ -

آل عمران. فالذين اتبعوا ابراهيم هم أحق الناس به، ثم النبي محمد

وهو مجدد فلسفة ابراهيم ومكملها برسالته، ثم الذين آمنوا بمحمد

وما قبل محمد ايمانا صحيحا سليما.

الفصل الثاني: الحرية

تُفضي فرضية شيطان لابلاس^{١٢} بأنّه لو وُجد كيان افتراضي يعرف جميع المعلومات عن الماضي والحاضر، ويعرف جميع القوانين الطبيعية التي تحكم الكون، سيكون مثل هذا الكيان قادرا على التنبؤ بالمستقبل بأدق تفاصيله. وهذه هي فحوى الحتمية السببية، حيث ترى هذه الفلسفة أنّ أحداث المستقبل ليست الا نتيجة للماضي، وأن الماضي بدوره نتيجة للماضي الأبعد منه، وكل ذلك يعود الى سبب أول، الانفجار العظيم مثلا. وبذلك، ووفق قوانين الفيزياء، يكون كل ما فعله الإنسان هو الطريق الوحيدة التي كان من الممكن أن يسلكها في فعل امر ما، ولو أُعيد الزمن لأعاد فعله بنفس الطريقة. وبهذا التحليل الخطي يكون في قدرة من ألمّ بجميع الحقائق الطبيعية

^{١٢} بيير سيمون لابلاس (١٧٤٩-١٨٢٧)، عالم رياضي وفلكي فرنسي. له نظريات عديدة في الرياضيات، ويعد من رواد الرياضيات الفلكية.

والمعلومات المتوفرة في حدث معيّن، أن يتنبأ بجميع الأحداث المستقبلية، والنتائج، والتأثيرات التي ستترتب على هذا الحدث.

يقول (سام هاريس) في كتابه *الإرادة الحرة*^{١٣}: "إنّ حرية الإرادة وهم. إنّ إرادتنا ببساطة ليست من إنتاجنا. هي الأفكار والنوايا الناتجة عن أسباب سابقة والتي لسنا متنبهين لها وليس لدينا سيطرة واعية عليها. فلسنا نملك الحرية التي نظن أننا نملكها." ويضيف هاريس في نفس الكتاب: "ويبدو أن مفهوم حرية الإرادة الشائع يركز على فرضيتين: ١- أنّ كلاً منا كان بإمكانه التصرف بطريقة مختلفة عما فعلنا في الماضي. ٢- أننا المصدر الواعي لأغلب أفكارنا وأفعالنا في الحاضر. وكما سنرى، فإنّ كلتا هتتين الفرضيتين خاطئة على أية حال."

وبما أنّ السيد هاريس متخصص في علم الأعصاب، الى جانب نشاطه الفكري والفلسفي، فإنّه يردّ كل ما فعلناه ونفعله الى الدماغ وتفاعلاته. فلو أعيد الزمان بالمجرم لقام بنفس الجريمة مرة أخرى،

Harris, Sam. (٢٠١٢). Free Will. Free Press. ^{١٣}

وذلك لأن دماغه هو صاحب القرار، ولأن دماغه تأثر بأسباب كثيرة، منها البيئة والجينات، قادته لتقرير القيام بهذا الفعل، ولم يكن لذلك المجرم إرادة في رفض ما أملاه عليه دماغه.

لا يعني عدم امتلاكنا الوعي لإرادتنا عند هاريس، أن علينا أن نتهرب من تحمل المسؤولية وألا نشارك في الإنتاج والعمل. فهاريس يؤمن بأنه يجب حبس المجرم لثلاثين عاماً ليعيد ارتكاب جريمته، وليس لأن الحبس عقوبة على جريمة فعلها. وبذلك لا يفرّق هاريس، من ناحية حرية الإرادة، بين من يعاني وربما في دماغه يزيد من حاجته للإجرام وبين الإنسان الصحيح؛ فكلاهما لم يقترفا جريمتها بإرادة حرة.

ويزعم السيد هاريس بأننا إذا أسلمنا بأنّ ليس لنا إرادة فيما نفعل، فذلك سيجعلنا نفهم العقلية المجرمة أكثر، وذلك بالعودة الى الأسباب التي صنعت تلك العقلية ومحاولة معالجتها لكيلا تتكرر في

المستقبل. ولكن، وبوجود مبدأ الريبة^{١٤}، لا يمكن أبدا معرفة جميع الأسباب التي ينتج عنها فعل معين، مما يعني أنّ اطروحة السيد هاريس في معرفة الأسباب ومعالجتها مستحيلة، كما نخبرنا أخصائيو علم النفس. فنظرية الفوضى^{١٥} لا تختلف كثيرا في الطبيعة عنها في علم نفس الإنسان، وذلك يعني صعوبة او استحالة معرفة جميع الظروف المحيطة بفعل معين، ويقودنا ذلك الى تأثير الفراشة^{١٦}، فلربما كان نداء طفل صغير لوالدته التي لم تسمعه ولم تجبه سببا في تحول ذلك الطفل

^{١٤} مبدأ الريبة، او مبدأ الشك، او مبدأ اللايقين: هو مبدأ وضعه العالم الألماني هايزنبرغ، يُنفي بأنه لا يمكن قياس خاصيتين لجسم كمومي معين في نفس الوقت الا بحدود معينة من الدقة، فكلما زادت دقة قياس الخاصية الأولى، قلّت دقة قياس الخاصية الأخرى. وهو المبدأ الذي جعل أينشتاين -وهو من أتباع الفلسفة الحتمية- يقول "إن الله لا يلعب النرد".

^{١٥} نظرية الفوضى، او نظرية الشواش: معرفة جميع المعلومات عن الأجزاء لا يعني بالضرورة معرفة الناتج الكلي لمجموع الأجزاء في الجمل اللاخطية.

^{١٦} تأثير الفراشة: حركة جناحي فراشة في اليابان قد تؤدي بعد فترة كافية لحدوث أعاصير وعواصف في أميركا وأوروبا. وهي نظرية تشير الى غياب القدرة على امكانية التنبؤ بما سينتجه حدث ما، مهما كان صغيرا.

الى مجرم عنيف، وما كان أي عالم نفس ليفكر بأن ذلك قد يكون سببا في السلوك الإجرامي الذي سلكه الطفل.

تستند الفلسفة الحتمية الحديثة على تجربة ليبيت^{١٧}، وغيرها، في التدليل على أنّ الأفعال والقرارات تتكون في لاوعي الإنسان في الدماغ،

^{١٧} تجربة ليبيت: وهي تجربة اجراها العالم الأميركي بنجامين ليبيت (١٩١٦-٢٠٠٧). حيث استدعى الباحث مجموعة من المشاركين وطلب منهم أن يقرروا في أي لحظة يريدون أن يقوموا بحركة بسيطة لتحريك كف اليد. طلب الباحث منهم أن تكون تلك القرارات دون تخطيط مسبق، بمعنى أن تكون تلقائية قدر الإمكان. وطلب الباحث من المشاركين في التجربة أن يسجلوا لحظة قراراتهم بتحريك اكف ايدهم على الساعة الموجودة أمامهم. وجرى أثناء تلك العملية رصد التغيرات في الحركات العصبية في المنطقة المسؤولة عن تحريك اليد في الدماغ لكل من المشاركين. وقد أعاد ليبيت هذه العملية ٤٠ مرة مع كل مشارك للحصول على نتائج دقيقة قدر الإمكان. كانت النتائج التي توصل إليها ليبيت قد رصدت تغيرًا في المنطقة المخصصة لحركة اليد في الدماغ سابقة لوعي الفرد برغبته بتحريك يده، بمعنى أنه قبل كل حالة ووعي بالقرار جرى رصد تغير سابق في الدماغ. استنتج ليبيت أن القرار بتحريك اليد قد جرى اتخاذه في الدماغ وبدأ الدماغ بإرسال أوامر عصبية لليد لتحرك قبل أن يقرر الفرد أن يحركها، بمعنى أن قرار تحريك اليد جرى دون وعي وبالتالي فهو لم يكن خيارا حراً وأنّ الإرادة الحرة تقتصر على حرية نقض القرارات وليس حرية إنشائها. وتعرضت تجربة ليبيت للعديد من النقود والاعتراضات التي قدمها علماء اعصاب وفلاسفة قاموا بتجارب حديثة من نفس النوع كالفيلسوف الفريد ميل، وتجربة هاغارد-ايمر ١٩٩٩. لقد تم إجراء تجارب اخرى غير تجربة ليبيت باستخدام اجهزة التصوير الحديثة الأكثر دقة، وقد أفضت تلك التجارب الى أنّ القرار اللاوعي يصدر في مناطق

وليست صادرة عن كينونة واعية اسمها الروح. وبذلك تكون افعالنا نتاج ادمغتنا وكيميائيتها وليس الروح التي يُفترض أنها تُصدر القرارات الحرة.

ونوضح الحتمية السببية ببساطة بهذا المخطط

سبب أول ← سبب ثان ← نتيجة

فلو اعتبرنا أنّ السبب الأول هو الانفجار العظيم، والسبب الأول هو تطور الإنسان، والسبب الثاني هو دماغ الإنسان وجيناته، والسبب الثاني هو بيئة الإنسان وحياته؛ تكون النتيجة هي الجريمة التي يرتكبها هذا الإنسان بفعل الانفجار العظيم، وكذلك كل أمر حسنٌ يفعلُه. ولذلك لو أعدنا الزمن، فإنّ المسار نفسه سيعيد نفسه ولا مناص من نجاهه.

اللاوعي في الدماغ قبل أن ينتقل الى مناطق الوعي بعدة ثواني، حيث يبقى لحوالي ثانية ثم ينتقل الى مناطق الحركة، او غيرها، في الدماغ، كما في التجربة التي اجراها العالم الالمانى جون ديبلان هينز.

وبذلك لا يكون الحتميون مختلفين كثيرا عن أبي الحسن الأشعري مثلا، فكلاهما يقول أن إرادة الإنسان مسلووبة، فالسبب الأول هو ما يحركه ويؤدي به الى فعل ما يفعل عند الحتميين، ويقول الأشعري أن الله هو الفاعل الحقيقي لكل ما يكون من أفعال الإنسان فليس الانسان الا منفذا لتلك الإرادة^{١٨}. والنتيجة أننا مسلوبو الارادة لأدمغتنا عند هاريس، ومسلوبوها لله عند الأشعري.

إنّ الحديث عن حرية الإرادة من منظور الفلسفة الإسلامية يقتضي الحديث عن نظرية المعرفة ومسألة علم الله، وهو ما سأحاول أن أضرب عنه صفحاً، ما استطعت، وتأجيل البحث فيه حتى نهاية هذا الفصل وبداية الفصل الثالث.

^{١٨} الأشعري، أبو الحسن. (١٩٩٥). اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع. القاهرة: مطبعة مصر.

ولأنَّ الحرية، والإرادة الحرة من بُنيّات العقل، فلا بدّ لنا من وضع تعريف لمنظومة العقل وتعداد أجزائها في ضوء العلوم الحديثة وبما يوافق فهمنا للتنزيل الحكيم.

يُعرّف العقل على أنه الخاصيّة التي تقوم بإنجاز الوظائف العليا للدماغ (التفكير، والجدل، والتحليل.. الخ.)، ويضمّ البعض الى وظائف العقل وظائف موجودة في أنواع اخرى غير البشر كالكره، والحب، والخوف. لقد تعددت تعريفات العقل وتنوعت عند العلماء والفلاسفة، فمنهم من قسمه الى عقل نظري، وآخر عملي؛ ومنهم من جعل فيه الذهن؛ ومنهم من قابله بالوجدان.

تعريفنا للعقل: هو منظومة المعرفة والوعي الإنساني، وفيه تتم الوظائف العليا والدُنيا، وهو مركز بناء القرارات الواعية استنادا على الخبرات السابقة، والمعلومات المتوفرة. ويتأثر العقل بما يؤثر على أجزائه بصورة تختلف بين إنسان وآخر. ويتألف العقل من جزأين:

جزء ماديّ محسوس، وآخر ميتافيزيقي لم يتسنى للإنسان قياسه بالأدوات المعرفية المتوفرة حتى الآن.

الجزء المادي من العقل: الدماغ

يتألف الدماغ البشري من أجزاء عدة تؤدي وظائف مختلفة. ومع أنّ الدماغ يعمل كجزء واحد متكامل قائدا للجهاز العصبي، إلا أنّ أجزاء الدماغ تختلف في نسبة تخصصها في تأدية الوظائف عن بعضها البعض. فبعض الأجزاء متخصصة بالوظائف الدنيا، فيما يكون البعض الآخر مسؤولاً عن السمع، أو البصر أو غيرهما من الحواس، أو الذاكرة.

يقع في مقدمة المخ الفص الجبهي، وهو مسؤول بصورة عامة عن الوظائف التالية:

- ١- دراسة العواقب المستقبلية المترتبة على الأفعال.
- ٢- الإختيار بين الجيد والسيئ، أو الحسن والأحسن.

٣- رفض أو كبت الأفعال المرفوضة اجتماعيا.

٤- تعيين التشابهات والاختلافات بين الأفعال والأحداث.

٥- معايرة العواطف القادمة من الجهاز النطاقي لتلائم الأعراف

الاجتماعية.

وبهذا يكون الفص الجبهي هو المسؤول عن حل المسائل المنطقية، والأفكار الإبداعية، ومعالجة الأفكار، والمبادرة، والسلوك، الى جانب وظائف اخرى. فالفص الجبهي، إذن، هو مركز عملية التفكير والتعقل، وهو ما يقابله القلب في وصف التنزيل الحكيم.

{قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ} ٩٧-البقرة.

فبالطبع لم ينزل جبريل على العضو الذي يضخ الدم في جسم الرسول وإنما على عضو يتحكم بالوعي والإدراك والذاكرة، فهو نزل بكلام الله على الرسول محمد ليبلغ الرسالة.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنِ
قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي..} ٢٦٠-البقرة.

وقلب الإنسان النبيه لا يطمئن بسهولة الا لما يستطيع احساسه
وإدراكه.

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ
لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ..} ١٥٩ - آل عمران.

والسلوك أمر مناط بالقلب، فهو الذي يتحكم بالأفعال بما يناسب
الموقف والبيئة.

{إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} ٨٩- الشعراء.

أي سليم من أمراض القلوب التي تجعله يرفض ما يقره عقله جهلاً
أو عزةً.

{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا
عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ
مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} ٣٥- غافر.

والجدال لا يكون بالعضو الذي يضخ الدم في الجسم قولاً واحداً،
وإنما بالدماغ وعلى وجه الخصوص عن طريق الفص الجبهي المسؤول
عن المنطق والمحاكمة المنطقية. و سنة الله في خلقه أنه كل من رفض
الحق متكبراً فإنه سيبقى يرفض الحق حتى يصبح هذا ديدنه ولا
يمكنه أن يرى الحق أو سلوك سبيله. وكأن الصحيح في منطقته يصبح
اختيار الباطل وليس الحق.

{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى
سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ
اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} ٢٣- الجاثية.

والختم يكون على القلب كما يكون على السمع، وكأن الله يصف تفكير المرء وهو يقلب امرا ما في رأسه فيقول لنفسه ويسمعها دون أن يفتح فمه.

{ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ١١ - التغابن.

يهد الله قلبه الى الاستدلال الصحيح، ووزن الأمور بصورة صحيحة، ومقاربتها المقاربة الأفضل.

{ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ.. } ١٣ - المائدة.

ومن وظائف القلب التذكّر واستعادة المعلومات من الذاكرة البعيدة الى الذاكرة القريبة. ونسي اولئك جزءا مما نزل عليهم من كلام الله الذي أصبحت قلوبهم من بعده صلبة متحجرة لا تهتدي الى الفكر الصحيح والهدى ولا تتقبل الأفكار المخالفة.

{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} ١٧٩- الاعراف.

وكيف بمن لا يستخدم قلبه الاستخدام الصحيح أن يفقه به؟ فهو كما أن لديه حاسة سمع لا تسمع الحق، وحاسة بصر لا ترى الحق، فإن له قلبا لا يستدل على الحق ولا يهتدي اليه.

{إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} ٤٥- التوبة.

ولا يرتاب الا القلب فهو مركز وزن الأمور وتقديرها، فإن ساء تقديره ساء مسلك صاحبه، وإن حسن تقديره حسن هدي صاحبه.

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ..} ٤٦- الحج.

فقد لا يفقه الإنسان بقلبه، وقد لا يعقل به، وقد لا يعلم به. ومثل
هذه الألفاظ التي رافقت القلب لتدل على وظيفته ودوره في تشكيل
قرارات الإنسان.

وعرّفت معاجم اللغة القلبَ تعاريف عديدة بحسب ورود الكلمة في
كلام العرب ومن تلك التعاريف:

"وقد يعبر بالقلبِ عن العقل، قال الفراء في قوله تعالى: إن في ذلك
لِدِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ؛ أَي عَقْلٌ. قال الفراء: وجائزٌ في العربية أن
تقول: ما لك قلبٌ، وما قلبك معك؛ تقول: ما عقلك معك، وأين
ذهبَ قلبك؟ أي أين ذهب عقلك؟ وقال غيره: لمن كان له قلبٌ أي
تَفَهُمٌ وتَدَبُّرٌ." ١٩

^{١٩} لسان العرب.

و "الْقَلْبُ: قلب الإنسان وغيره، *سَمِّيَ لِأَنَّهُ أَخْلَصَ شَيْءٌ فِيهِ وَأَرْفَعُهُ.

وخالصُ كلِّ شيءٍ وأشرفُهُ قلبُهُ. ويقولون عَرَبِيٌّ قَلْبٌ. قال:
فلا تُكثِرُوا فِيهَا الصَّجَاجَ فَإِنِّي تَخَيَّرْتُهَا مِنْهُمْ زُبَيْرِيَّةً قُلْبًا" ٢٠

ففي القلب تتم عملية التفكير والتدبر والتعقل. ولكن التنزيل الحكيم جعل موطن القلب الصدر، فكيف يمكن أن يكون الحديث عن جزء من الدماغ، في حين أن مكان ذلك الجزء هو الصدر؟

قال تعالى:

{مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ
اللَّهِ وَهُمْ وَعَذَابٌ عَظِيمٌ} ١٠٦- النحل.

^{٢٠} مقاييس اللغة.

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ٢٤-الشورى.

{وَلَيْبِئِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ١٥٤-آل عمران.

{..فِيئَهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} ٤٦-الحج.

إذن، كيف أمكن أن يكون القلب الذي قصدته الآيات هو القلب الذي نفترض أنه في الرأس؟ الأمر يرجع الى الاستخدام العامي الخاطئ للصدر، ولغيرها من الكلمات العربية، والذي ألقى بظلاله على فهم العامة، وحتى فهم بعض المتخصصين، لأي التنزيل الحكيم.

قال تعالى:

{أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ
ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ} ٥-هود.

والحديث في الآية عن الرأس وليس عن أي عضو آخر من أعضاء
الجسم. فهم يطاءئون رؤوسهم كما يفعل من يريد أن يتعد بنظره
عمن يراد تجنبه، وهم يستغشون ثيابهم فيغطوا بها رؤوسهم، وهذا
مذهب العديد من المفسرين. ومع كل ذلك فإن الله يعلم سرهم الذي
يحاولون إخفائه عنه. وكما أفهمنا العلم فلا مكان في الصدر-بمفهومه
الحالي- تخزن الأسرار فيه.

ويقول صاحب القاموس المحيط "الصَّدْرُ: أَعْلَى مُقَدِّمِ كُلِّ شَيْءٍ
وَأَوَّلُهُ، وَكُلُّ مَا وَاجَهَكَ"، وأعلى مقدم جسم الإنسان جبهته، وهي
صدره، وفيها يقع الفص الجبهي من الدماغ، أعلى مقدم الرأس.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ
يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ الانعام.

استخدم التنزيل الحكيم عبارة (كأنما يصعد في السماء) للتدليل على ضيق الصدر وكأنه يريد الانهيار على بعضه، ولم يستخدم (كأنما تسحبه صخرة) أو (كأنما يدوس عليه حجر). فالعبارتان الأخريان أقرب لإفهامنا وتصوير ضيق الصدر لنا، وحتى للمجتمع العربي حين نزول كلام الله. وكما أسلفنا فإن سمة كلام الله الدقة والإتيان بالكلمة التي تناسب السياق والمعنى المراد، لا المعنى الذي نفهمه نحن بلهجتنا العامية. إن الإنسان عند صعوده فوق مستوى سطح البحر واستمراره في الصعود نحو الأعلى (يصعد في السماء) يبدأ باختبار أعراض معينة. تسبب تلك الأعراض انخفاض الضغط الجوي، وأكثر تلك الأعراض شيوعا وأولها ظهورا هي أعراض تتعلق بالرأس، وليس الصدر، فالصداع والدوخة والغثيان كلها من

أعراض الصعود نحو الأعلى، وهي ناتجة عن إنخفاض نشاط الدورة الدموية وقلة الأوكسجين.

والقلب الذي تحدثت عنه الآيات قلبٌ يعقل، ويُدرك، ويفقه، ويتذكر به الإنسان؛ وليس قلباً يُضخ الدمُ به الى بقية أعضاء الجسم. والقلب في الصدر، الصدرُ الذي يطأطئه الإنسان ليتجنب شخصا أو حديثا ما، والصدر الذي يضيقُ ويضغط على نفسه اذا تصعد في السماء. وهذا القلبُ-أي الفص الجبهي- هو القلبُ الذي أثبت العلم بأنه يقوم بتلك الوظائف والمهام وغيرها.

ونأتي الآن الى العضو الثاني من الجزء المادي لمنظومة العقل وهو الجهاز النطاقي، ولهذا الجهاز وظائف عدة نذكر منها التالي:

١- العواطف، وردود الفعل العاطفية.

٢- التعلم.

٣- التحفيز.

٤- الإلتباه.

٥- الأفعال الغريزية.

٦- الذاكرة.

فالجهاز النطاقي مركز للعواطف وردود الافعال العاطفية، أكثر من كونه رياضيا منطقيا كما هو الفص الجبهي. وهو المسؤول عن عمليات التعلم والإنتباه، ثم بعد ذلك يأتي دور الفص الجبهي في تحليل المعلومات وإصدار الحكم عليها بعملياته المنطقية. ويكون الجهاز النطاقي بذلك مطابقا لما أسماه التنزيل الحكيم فؤادا.

والفؤاد فؤادا لما فيه من العواطف التي تجعله يلتهب، وقال أصحاب المعاجم عن الفؤاد:

"والفؤاد القلبُ لِتَفْوُدِهِ وتوقُّدِهِ، مذكر لا غير؛ صرح بذلك اللحياني،

يكون ذلك لنوع الإنسان وغيره من أنواع الحيوان الذي له قلب" ٢١

"وهو من فأدت اللحمَ وأفتأدتهُ، إذا شويته. ولحمٌ فَيُّدٌ، أي

مشويٌّ. ٢٢"

"وأفتأدوا: أوقدوا ناراً. والتفؤدُ: التَّحْرِقُ، والتوقُّدُ، ٢٣"

"الفاء والألف والذال هذا أصلٌ صحيح يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارة.

من ذلك: فأدت اللحمَ: شويته. وهذا فَيُّدٌ، أي مشويٌّ. ٢٤"

فالفؤاد مركز العواطف والمشاعر، وهو متقلب بينها كأنها يتقلب على

النار، فيفرح تارة ويحزن أخرى؛ ويثبت تارة ويرتاب أخرى. وهذه

هي المعاني التي رافقت الفؤاد في التنزيل الحكيم، قال تعالى:

٢١ لسان العرب.

٢٢ الصحاح في اللغة.

٢٣ القاموس المحيط.

٢٤ مقاييس اللغة.

{وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ
وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} ١٢٠ -
هود.

فالقصاص تُقْصُ لتعطي الدافع والحافز لسامعيها، فتثبت أفئدتهم
فيستمروا نحو أهدافهم التي تكون صعبة وشاقّة في بعض الأحيان.

{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ
أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} ٣٦-الإسراء.

ولكل من السمع والبصر مناطقها في الدماغ، فالقشرة السمعية هي
المسؤولة عن استقبال الموجات القادمة من الأذن وتحويلها الى
معلومات، فيما يترجم الفص القفوي الصور الى معلومات يفهمها
الدماغ ويخزنها. ويبقى الفؤاد الذي إحدى وظائفه التعلم من
المعلومات التي تدخل عن طريق السمع والبصر. وأي معلومات

يردها الإنسان دون أن تختبرها المنظومة العقلية بكاملها تكون مما
ليس للإنسان به علم.

{مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} ١١-النجم.

ولأن البصر ما كان ليكون دون فؤاد، فكأن الرؤية حدثت بالفؤاد
وليس بالعين.

{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
الْمَحْرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي
إِلَيْهِمْ وَارزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} ٣٧-ابراهيم.

وها هو ابراهيم يدعو ربه أن يجعل ذوي الأفئدة الحية يقعون في حب
البيت المحرم وأهله.

{مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ
هَوَاءٌ} ٤٣-ابراهيم.

أفئدتهم فارغة خالية من شدة الفزع، لا يشعرون بشيء مما كانوا يشعرونه حال حياتهم.

{وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيهَا إِنَّ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا
وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ
شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَمْجِدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ} ٢٦- الاحقاف.

وعلى الرغم من امتلاكهم ادوات الإدراك من سمع وبصر وأفئدة إلا انهم لم يدركوا، بل وأصروا على الجحود والاستهزاء.

{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ
رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} ١٠- القصص.

وهذه الآية توضح لنا طبيعة العلاقة بين الفؤاد والقلب. فالفؤاد تغمره المشاعر، ولهذا فقد أصبح فؤاد ام موسى فارغا بعد أن القته في

اليم على الرغم من مشاعر الأمومة وغريزتها. ولكن الله ربط على قلبها الذي له القرار الأخير، فقدّم سلامة الطفل على إشباع حاجة الأمومة وغلب المنطق على العاطفة. ولو كانت الآية (لولا أن ربطنا على فؤادها)، لأصبح المعنى أنّ الله أذهب عن فؤادها الإحساس، إحساس الأمومة وجرد فؤاد أم موسى من المشاعر. ولذلك فإنّ الله ربط على قلبها ليتحكم بمشاعرها وليس للتخلص من تلك المشاعر الى الأبد.

وهكذا أصبح الجزء المادي من المنظومة العقلية كاملا، فهو يتكون من الفؤاد (الجهاز النطاقي)، والقلب (الفص الجبهي). وهو، لوحده، المسؤول عن انتاج القرارات عند مؤيدي الحتمية السببية. وهذا ما أطلق عليه التنزيل الحكيم النفس. فالنفس هي مجموع الأجزاء المادية للجنس البشري، ولأنّ أهم تلك الأجزاء هو الدماغ، فإنّ التنزيل الحكيم قد دلّ على النفس بأجزاء الدماغ

قال تعالى:

{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} ٧٨- المؤمنون.

والإنشاء هو إنشاء الجزء المادي من الإنسان.

{ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} ٩- السجدة.

فبعد تسوية الجنس البشري، ونفخ الروح فيه بدأ الجزء المادي بالتكيف مع هذا التغيير الجديد. وهذا ما عبر عنه الفعل (جَعَلَ) فهو غير (أنشأ) و (أوجد) و (خلق)، فالجعل يأتي بمعنى التخصيص. "والجُعِلَ والجَعَالَةُ والجَعِيلَةُ: ما يُجْعَلُ للإنسان على الأمر يَفْعَلُهُ." ٢٥ ويخبرنا علم الأحياء التطوري بأنَّ الجهاز النطاقي (الفؤاد) سبق القشرة المخية والفص الجبهي (القلب) في تطوره. فكلما عدنا الى

^{٢٥} مقياس اللغة.

الخلف في مراحل تطور الدماغ، وجدنا شبيها بين دماغنا وأدمغة الحيوانات الأدنى فالأدنى.

فالتسوية كانت للنفس البشرية {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} ٧-الشمس . وهي تسوية مادية كانت بداية لتهيئة الإنسان لتسيد البسيطة. {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا} ٣٧-الكهف . و (رجل) بمعنى متقدم على غيره من المخلوقات، وذلك بعد التسوية.

وكل ما امتلك هذه الأجزاء المادية (القلب، الفؤاد، الجهاز السمعي، الجهاز البصري)، هو نفس، يؤثر عليها الموت والحياة.

قال تعالى:

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} ٣٥-الأنبياء.

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} ٥٧-العنكبوت.

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} ١٨٥-ال عمران.

فالحيوانات نفوس وهي ميّنة أيضا : {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ
وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمُتَفَوِّدَةُ
وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ..} ٣-المائدة. والموت دلالة على ذهاب القوة
من الشيء، فكل نفس تموت. وبهذا نستطيع توضيح مفهوم النفس في
التنزيل الحكيم وباستخدام ما توصل اليه العلم في وقتنا الحاضر
بالشكل التالي:

النفس

دماغ		
قلب		
بصر	فؤاد	سمع
جسد		

فنحن والحيوانات العليا مشتركون في هذا التكوين المادي. ولكنّ اتباع الفلسفة المادية يتوقفون عند هذا الحدّ، فيشابهوا بذلك بين الإنسان والحيوانات، ثم يعزون اختلاف الإنسان وقدرته الى حجم دماغه قياسا الى باقي الحيوانات. وقد يكون ذلك صحيحا في كثير من الأمثلة، فالدماغ هو مادة العقل وعند تحلّفه تتخلف الوظائف العقلية الواعية. ولكن، نجبرنا التنزيل الحكيم عن جانب آخر للعقل، جانب يرتبط ارتباطا وثيقا بتكريم الإنسان، وهو ما حصل للجنس البشري

بعد تسويته، وهو نفخ الروح. لقد قدّم المفسرون والفلاسفة والعلماء آراءً كثيرة عن الروح، تتقارب حيناً وتبتعد أحياناً أخرى. فما هي الروح؟

يعرّف بعض أتباع الفلسفة الشنائية^{٢٦} الروح على أنها نظام التشغيل، اذا افترضنا أن جسم الإنسان هو الكمبيوتر بقطعه المادية. ولكننا نرى الروح أقرب الى اللغة التي تم بها برمجة ذلك الكمبيوتر ونظامه. فالجزء المادي من الإنسان أقرب لأن يكون حاسوباً جاهزاً للعمل، منه الى كونه قطع مادية لا تحتوي نظام تشغيل.

^{٢٦} وهي فلسفة تؤمن بوجود جوهرين أحدهما مادي، والآخر ميتافيزيقي كالروح، والعقل. ولو أخذنا الإنسان مثلاً، فالجزء المادي هو الجسد، فيما يكون الجزء الميتافيزيقي الروح، ويختلف الجزآن عن بعضهما، في الهيئة والوظيفة، اختلافاً كبيراً.

الجزء الميتافيزيقي من العقل: الروح

الروح: هي الجانب الميتافيزيقي من المنظومة العقلية في الإنسان، وهي قدرة الإنسان الفريدة على التعلم واكتساب الخبرة، وهي الجزء الذي يدرك الإنسان عن طريقه، بخلاف بقية الكائنات، حرّية الأرادة.

لقد وردت كلمة (رُوح) بمعانٍ عدة في التنزيل الحكيم. ويهمننا من تلك المعاني معنى الروح التي نفخها الله في البشر.

{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} ٧٢-

ص.

هي الروح التي نفخها الله في البشر بعد تسويته ليتحول بها الى انسان متسيّد لغيره من المخلوقات، له حرية الإرادة التي تؤهله للتكليف. وكما أسلفنا فإن الإنسان والحيوانات العليا متشابهة النفوس الى حد بعيد، ولكن الإنسان يختلف عن تلك الحيوانات بالروح التي عن

طريقها يستطيع كبح جماح رغبات النفس المادية، وشهواتها، وتنمية الجانب الخيّر من تلك النفس. قال تعالى:

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} ٧-١٠- الشمس.

والروح هي القدرة على التعلم، واختبار الأحداث وأخذ العبر. وهي القدرة على تكوين الأفكار المنطقية، والتفكير في العواقب البعيدة، كالثواب والعقاب. والروح هي ما توسعت بها قدرات الدماغ وبعُدت أفقه وانتقل من التوقف عند المحسوس الى التفكير فيما وراءه، وذلك من قياس فعل (رَوَّح) فهو يدل على حركة وسعة: "روح: الرء والواو والحاء أصل كبير مطّرد، يدلُّ على سَعَةٍ وفُسْحَةٍ واطّراد. وأصل [ذلك] كلُّه الرِّيح. وأصل اليباء في الريح الواو، وإنّما قلبت ياءً لكسرة ما قبلها. فالرُّوح رُوح الإنسان، وإنّما هو مشتق من الرِّيح،

وكذلك الباب كله.^{٢٧} ولذلك فقد هُيئَ دماغ الإنسان ليكون وسيلة لتلك الروح، تروض به النفس المطبوعة على الرغبات الغريزية، فأنتجت لنا أفعالا مثل الإيثار والتضحية والإنفاق والقدرة على الإبداع وتذوق الفنون. ولا تفسر لنا غريزة البقاء الجينية، لوحدها، حبنا للفنون وقدرتنا على الإبداع. إن الإنسان ليس جملة خطية تتساوى فيها المدخلات والمخرجات. فمجموع وظائف كل خلية من الخلايا التي تكوّن الدماغ لا يساوي مجموع وظائف الخلايا فقط، وإنما يعطينا وظائف جديدة تتعد عن المدخلات ابتعادا واضحا. ولعلم الله بما خلق، فقد كلّف الإنسان دون سائر الخلائق، وخاطبه برسالاته مبينا له تلك الحرية، وطالبا منه السعي في طلب العلم، لأن العلم مفتاح الحرية.

وليست الروح جذوة الحياة كما يظن البعض، وإنما هي شفرة المعلومات التي تقود الجزء الذي يموت ويحيى (النفس). وهي التي

^{٢٧} مقاييس اللغة.

قال الله عنها {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا
مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} ٣٨-النبأ. وقد وصف الله
الناس بأنهم روح لأن الله يعلمهم يوم الحساب ما لم يكونوا يعلمون،
{وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ
نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا
خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ
مَوْعِدًا * وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ
وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا
كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ
أَحَدًا} ٤٧-٤٩-الكهف. والناس يومئذ أرواح خالصة ليس
لأنفسهم سلطان عليهم. فهم يعلمون ولا يعملون {وَلَوْ تَرَى إِذِ
الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا
فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} ١٢-السجدة. وأنفس

الناس ذاهلة عما كان يشغلها في الحياة الدنيا، فهي لم تعد ترغب بما كانت ترغب قبلا { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ }
٣٤-٣٧-عيس.

فالخلود للروح والموت للنفوس. والروح واحدة والنفوس متعددة. وتتفاعل الروح مع كل نفس على قدر ما تريد تلك النفس أن تفجر أو تتقي. وبالروح تكتمل المنظومة العقلية في الإنسان. فالروح تركب الجزء المادي من عقل الإنسان، وتعمل عليه وفيه. وبغياب الروح يكون الجزء المادي موجودا دون أن يكون حاضرا، ويكون الإنسان عندها كالأنعام التي تقودها غرائز البقاء الى أن تكون ذليلة طائعة لمن يمد لها اسباب العيش:

{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ

بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ
الْغَافِلُونَ {١٧٩- الأعراف.

{أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا * أَمْ
تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ
هُمُ أَضَلُّ سَبِيلًا {٤٣، ٤٤- الفرقان.

ولهذا لا نرى في الفعالية الدماغية التي شاهدها العلماء^{٢٨} دليلاً على
غياب الإرادة الحرة؛ ذلك أننا نقرّ أن الروح ليست كينونة مستقلة
تعمل بمعزل عن الجزء المادي من الإنسان. وقد يعمل الجزء المادي
من الإنسان بغياب الروح، كالمجانين والمخبولين؛ لكن الروح
لوحدها هي مفهوم مجرد غير محسوس، تتراكم مع نفوس الناس
وتتفاعل معها متأثرة بها تتأثر به تلك النفوس.

^{٢٨} إشارة إلى تجربة ليببت وغيرها.

ويكتمال المنظومة العقلية يسعنا الآن الحديث عن الحرية وحرية الإرادة التي لا نراها عند الحيوانات ولكنها وقف على الإنسان. فالحرية نتاج العلم، وكلما زاد العلم زادت الحرية طردا. ولهذا كان رد آينشتاين على نظرية الشواش بأن الله لا يلعب النرد. وذلك لأن عدم قدرة الانسان على القياس بدقة تعني محدودية علمه وبالتالي محدودية حريته. ولكن آينشتاين أخطأ عندما قارن علم الله بعلم الإنسان. فالإنسان يبتكّم الى قوانين الكون الذي يعيش فيه، وبما أن الله هو خالق هذا الكون، فهو فوقه ولا يخضع لتلك القوانين. وبالتالي لا يمكن أن نقيس طرائق علمنا ومقارباتنا الى علم الله، وقد فهم الكثير من الفلاسفة والقليل من العلماء ذلك فاحترموا عقولهم وتوقفوا عند الحد الذي تتوقف عنده الحواس، وأقروا أن الكلام لا يعدو بعد ذلك الحد عن كونه توقع ورأي، وفي ظل غياب المعطيات، لن يكون إلا كذلك.

إنَّ الحرية والعدل أصلان متلازمان، يجب وجود احدهما لوجود الآخر. فلعدل الله كان الإنسان حراً، والحرية دليل على عدل الله. فهل نحن أحرار؟ أو كما يقول المتكلمون المحمديون: هل الإنسان مُخير؟ وعدلُ الله يوجب أن تكون الإجابة نعم. فنحنُ أحرارٌ نخيرون في كل مناحي حياتنا. ولكنَّ تلك الحرية محدودة بمدى علمنا، وكلما زاد علمنا زادت مساحة حريتنا، وزاد عدد الخيارات التي نستطيع الإختيار بينها. ولا تأتي الحرية دون مسؤولية، فهل أنا حرٌّ في اختيار الإله الذي أعبد؟ نعم بالطبع؛ ولكن عليّ أن أكون مستعداً لتحمل العواقب المترتبة على اختياري، كما أُنِي اشعر بأحقيتي بنيل الجزاء الحسن المترتب على خياراتي. أمّا من ينظر الى الحرية بأنها سلعة رخيصة، أو هبة؛ فذلك ممن يريدون أن ينالوا ملذات الحياة دون أن يختبروا آلامها، وذلك لا يمكن.

فالحرية^{٢٩} هي قدرة الإنسان العاقل على الاختيار بين عدة خيارات يعلمها، معتمدا على القدرة العقلية في وزن الأمور ودراسة العواقب المترتبة عليها.

قال تعالى:

{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}٣-الإنسان.

فالإنسان حر في الاختيار بأن يشكر أو أن يكفر، ولو لم يهده الله السبيل، لما كان حرا. ولا يمكن أن يطلب الله الإيثار ممن لم يُبلِّغ بالدين. وهو، الإنسان، حرٌّ في اختيار الدين الذي يريده والفلسفة التي تستهويه. {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ

^{٢٩} الحرية التي نتحدث عنها في هذا المقام هي الحرية التي منحها الله للإنسان، أو الحرية الأساسية التي يستحقها الإنسان لمجرد وجوده في هذا الكون، ولن نتطرق الى الحريات السياسية والاقتصادية فتلك الحريات، وعواقبها، ليست قائمة بذاتها وإنما هي حريات وُجدت أو غابت بفعل القرارات الواعية التي اتخذها الإنسان بإرادته الحرة، أو بفعل القرارات الواعية التي فرضها فرد أو جماعة، بإرادتهم الحرة، على فرد آخر أو جماعة أخرى.

يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ
لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {٢٥٦-البقرة.

وقد يسأل البعض عن السبب في غياب لفظ (الحرية) في التنزيل الحكيم، كما وردت غيرها من الألفاظ بصورة مكررة. ونقول: الحرية أصلٌ، وما يقيدها هو الطارئ. ونحن نتعرف على هذه القيود وسياقاتها، لنعرف عن طريقها الحرية. فكل ما لم يقيده التنزيل الحكيم أو يوكل تقييده الى الإنسان هو حرية يختار فيها الإنسان ما يشاء ويتحمل عاقبة اختياره بحسب الضوابط. فالإنسان حرٌّ بالقدر الذي يتيسر له علمه، والقدر الذي يريد هو أن يكون حراً. فمن يريد الخلاص من قيود المجتمع، رحل عنه. ومن أراد الإمتيازات التي يعطيها المجتمع، أسلم له جزءاً من حريته. ومن أراد قيود الحياة وفق منهج معين، تخلى عن جزء من حريته. ومن أراد أن يكفر بجميع المناهج، تحمّل العاقبة المترتبة على كفره. وهكذا، فحرية الإرادة تعني،

بشكل من الأشكال، حرية الإختيار وتحمّل النتائج المترتبة على ذلك الإختيار.

ومن الأمور التي اختلطت على الباحثين والفلاسفة المحمديين، القدر. والقدر من الأمور الأساسية التي لا بدّ أن يبحث فيها كلّ من حاول البحث في الحرية من منظور الأديان. فما هو القدر؟ وكيف تعامل المفسرون والفقهاء مع مفهوم القدر؟ وهل يتعارض القدر بمفهومه الإسلامي الحالي مع حرية الإرادة؟

"أي أنّ الله قدرّ كل شيء تقديرا سابقا، وأن أفعال الإنسان محكومة بالإرادة الإلهية، وأنّ الفاعل الحقيقي هو الله، لا الإنسان."^{٣٠}

فالقدر عند أهل الأديان يعني غياب حرية الإرادة عن الأفعال الإنسانية، فيكون الانسان بذلك منفذا "لقدر" الله الذي وُضع سلفا وما يحدثه الإنسان ما هو الانفاذ ذلك القدر.

^{٣٠} بدوي، عبد الرحمن (١٩٨٤). موسوعة الفلسفة ج٢. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

"وفي الإسلام سادت القدرية أي القول بالقضاء السابق والقدر المقدر سابقاً- في مذهب أهل السنة والجماعة، واتخذت الأشعرية شكلاً مخففاً لكنه لا يزال يؤكد القدرية التامة، ولم يقل بحرية الإرادة الإنسانية إلا المعتزلة."^{٣١}

وهكذا، ولتعريفهم الخاطئ للقدر، فإن إرادة الإنسان مسلوقة عند أكثر أهل الفرق الإسلامية. وفكرة أن الله قد كتب على الناس أفعالهم وقدرها عليهم، وهم ليسوا إلا أدوات لتنفيذ تلك الأقدار، تعاكس فكرة الإرادة الحرة، وبالتالي تتعارض مع مفهوم العدل الإلهي في الثواب والعقاب. فالقدر كما ورد في التنزيل الحكيم يعني تقدير الله للأشياء لتسير وفق خطة معينة، وبعبارة أخرى، القدر هو القوانين التي قدرها الله لتحكم مفردات الوجود. والقدر في اللغة يقاس على نفس المعنى

^{٣١} نفس المصدر السابق.

"وَقَدَرْتُ الثَّوْبَ فَانْقَدَرَ: جَاءَ عَلَى الْمِقْدَارِ.. وَالْقَدْرَاءُ: الْأَذُنُ لَيْسَتْ
بِصَغِيرَةٍ وَلَا كَبِيرَةٍ.. وَقَدَّرْتَهُ أَقْدَرُهُ قَدَارَةً: هَيَّأْتُ، وَوَقَّعْتُ." ٣٢
"وَقَدَرْتُ الشَّيْءَ أَقْدَرُهُ مِنَ التَّقْدِيرِ، وَقَدَّرْتَهُ أَقْدَرَهُ." ٣٣

ووردت مشتقات (قَدَرَ) في التنزيل الحكيم بمعانٍ يهمننا، في بحثنا،
منها التالي:

{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} ٤٩- القمر.

فكل شيء خلقه الله قد خلقه وفق قانون محدد يمتكّم اليه. ولم يخلق الله
مفردات الوجود اعتباطا كيفما اتفق، وإنما وفق تقدير دقيق وُضع
ليُسيّر الكونَ ومحتوياته.

{الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} ٢- الفرقان.

^{٣٢} القاموس المحيط.

^{٣٣} مقاييس اللغة.

وكل شيءٍ يحتكم الى القدر الذي وضعه الله ويسير وفقه، ولا يجيد عنه.

{اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} ٨-الرعد.

{وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} ٢١-الحجر.

{وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ} ١٨-المؤمنون.

{مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا} ٣٨- الاحزاب.

وتلك هي سنة الله، أن يكون أمره قدرا بالغا حده، لا أقل من ذلك ولا أكثر.

{وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً
وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} ١٨-سبأ.

{وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا
الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ
فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ٣٩-٤٠-يس.

{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا
فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ} ١٠-فصلت.

{وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ
حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} ٣-
الطلاق.

وتدل الآيات السابقة على قانون معين وضعه الله وهو قدره الذي
قَدَّر، وهو القانون الذي يسير وفقه الكون وما فيه ومن فيه .

{نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ
نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } ٦٠-٦١- الواقعة .

فالموت قانون من قوانين الحياة، تسير الحياة اليه، ووفقه. فكل شيء
مَيَّت، وهذا هو قانون الحياة. وللإنسان الحرية ضمن هذا القانون،
ولكن ليس بعد حدوده. فالعلم يبحث في إطالة عمر الإنسان، وقد
وصل في ذلك شأواً بعيداً، ولكنه لن يستطيع أن يغيّر قدر الله الذي
وضعه ليكون قانون الحياة.

لقد أعطى الله الإنسان حرية مطلقة في قيادة حياته، وفي اختيار الطرق
التي يريد سلوكها دون غيرها. وتلك الحرية نابعة من عدم كتابة الله
أقدار الناس كما فهمتها الأديان، وإنما قدر الله الحدود العامة التي تقيّد

حريتنا، والتي تسيّر وفقها حيواتنا. فالمادة تقيدها قوانينها، من قوانين الكيمياء والفيزياء وغيرها.

والحديث عن الإرادة الحرة يستلزم الحديث في مسألة علم الله. وقبل الحديث عن علم الله علينا أن نبيّن بعض المفاهيم ولو بشكل مختصر. فالإمام المبين، واللوح المحفوظ، وام الكتاب، والصحف، والكتاب، ليست كما تخيل المفسرون والناس أنها مجموعة أوراق مكتوب عليها أقدار الناس، وأعمالهم، ومصائرهم منذ الأزل. فليس لتلك المفاهيم أي تأثير على حيوات الناس وخياراتهم.^{٣٤}

^{٣٤} لا يحتاج الله تعالى الى كتابة قوانين الطبيعة، أو اعمال الناس على ورق ووضعها في قراطيس وتغليفها ليحفظها الى يوم القيامة. والإشكال حصل بسبب الفهم الخاطئ لدلالة فعل "كَتَبَ" الذي يعني الجمع وليس النسخ على ورق. قال تعالى: {قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ} قَالَ عَلِمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَحْطِئُ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ {٥١،٥٢-طه. فهل يخبرنا الله بأنه يسجل أبناء الماضي في كتاب ثم يقول أنه لا يخطئ ولا ينسى؟ أيكون الله لا يتذكر الا ما يسجله في الكتب! سبحانه عن ذلك علواً كبيراً. ولو أراد تعالى الإشارة الى كتاب ماديّ لجعل معه قرينة تدل على ذلك، قال تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}٧-الانعام. فالكتاب في هذه الآية كتاب مادي مكتوب في قراطيس (وهو ما يكتب عليه

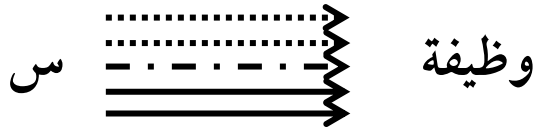
الله خالق هذا الكون ومقدر قوانينه ولا شكّ يعلم كلّ ما يحدث فيه وما قد يحدث. ولكنّ اختلافنا حول كيفية ذلك العلم، فعلم الله يجب أن يكون متناسبا مع عدله كما هو متناسب مع قدرته، فلا ينبغي أن يحكم علم الله على ارادة بني الإنسان وإلا أصبح مفهوم الثواب والعقاب مفهوما عبثيا لا يستند الى قانون معيّن.

فعلم الله علمٌ كاملٌ شاملٌ أزلي، وهو يعلم كل ما فعله الإنسان وما يفعله وما قد يفعله في المستقبل. وعلم الله بما قد يفعله الإنسان في المستقبل نابع من علمه الكامل بقوانين الكون التي علمنا منها والتي غاب منها الكثير عن علمنا. والفرق بين علم الله الذي نؤمن به وبين فرضية شيطان لابلاس أو ما قال به المفسرون المحمديون واللاهوتيون المسيحيون، أنّ علم الله يعطي فسحة لحرية الإرادة الإنسانية.

كالبردي والورق)، ومن صفة هذا الكتاب المادي انه يُلمس باليد، وذلك ما لم يصف به الله تعالى الكتب الاخرى التي ذهب المفسرون الى ان اقدارنا مكتوبة فيها.

وسنضع مفهوم العلم المتشابه عند لابلاس، والاحتميين، وعند
المفسرين والفقهاء المحمديين والمسيحيين في المخطط التالي:

فلنفترض أن شخصاً اسمه (س) أراد التقديم على وظيفة. وهناك
خمس طرق توصل ذلك الإنسان الى هدفه، ولكنه يعلم من تلك
الطرق ثلاثة فقط.



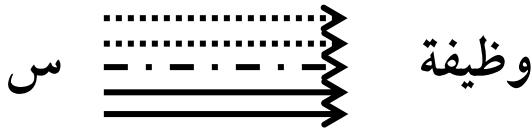
يعلم س من تلك الطرق الخمسة جميع الطرق عدا الطرق الغير
مقطعة، أي أنه يعلم الطرق الثلاثة الأولى. وعند مؤيدي الفلسفة
الاحتمية، فإنّ س كان مقدراً عليه سلوك الطريق الأوسط (ذي النقط
والخطوط) منذ بدأ الكون المادي. وما كان له تغيير خياره أبداً. ووفق
فرضية لابلاس، فإنه لو وُجد كائن افتراضي يعلم كل القوانين
الكونية وكل الأحداث الماضية المحيطة، فإنه كان بإمكان ذلك الكائن
معرفة أنّ س كان سيسلك الطريق الأوسط للوصول الى الوظيفة.

وفي فلسفة المحمديين، فالأمر لا يختلف كثيرا، ولكن ذلك الكائن من
 فرضية لابلاس هو الله. فالله يعلم كل شيء وبذلك فقد علم، وكتب
 لذلك الإنسان، وعليه، أنه سيختار الطريق الأوسط في سعيه نحو
 الوظيفة. ويكون المخطط حسب النظرية الحتمية، وحسب فلسفات
 الأديان:

وظيفة → س

وهكذا، فلم يكن لذلك الشخص حرية الإرادة يوما. فكل ما اختاره
 كان مقررا معلوما مسبقا.

أما النموذج الذي نفهمه من كتاب الله تعالى متوافقا مع علمه الكامل
 ولا يغتال حرية الإرادة الإنسانية، ويوضحه المخطط التالي:



فالطرق الخمسة التي يمكن أن يسلكها س للحصول على الوظيفة هي كلها داخلة في علم الله. فيما لا يعلم س بتوفر الطرق التي يمثلها السهمان الكاملان (الغير منقطان). وبذلك تكون حرية س حرية كاملة في اختيار أيّ من الطرق الداخلة ضمن علمه. والطرق الثلاثة التي يعلمها س، ويعلم الله أنه يعلمها، هي متساوية في احتمالية إختيار س لها؛ وهي في علم الله متساوية أيضا، أي أنّها ثلاثتها ضمن الخيارات التي قد يختار الشخص منها. فلم يكتب الله على ذلك الشخص أن يختار الخيار الأوسط كما ظنّ السابقون، ولكنه أعطى لذلك الشخص حرية الإختيار من ضمن ما أتاح له علمه. ولو زاد علم الشخص وتعدى الطرق الثلاثة الى الطريق الرابع أو الخامس، لدخلت هي أيضا ضمن الخيارات التي يستطيع الإختيار بينها. وعند لحظة الإختيار يحصل العلم الالهي بأنّ الإنسان فضل هذا الخيار على غيره، وبذلك تكون حرية الإنسان كاملة غير مقيّدة.

هل يُنقص ذلك من علم الله؟ كلا، لأن علم الله علمٌ كاملٌ شامل. فهو تعالى يعلم جميع الطرق التي كان من الممكن للشخص سلوكها في قضية معيَّنة. وهو تعالى يعلم جميع القوانين والأحداث المؤثرة في اختيار الشخص طريقاً دون آخر، ولكنه تعالى لو علم الخيار الذي سيختاره الإنسان، لعنى ذلك أنه يعلم احد الخيارات أكثر من الخيارات الأخرى، وذلك لا يصحّ مع كامل العلم.

ولنأخذ (سورة المسد) انموذجا نطبق عليه فهمنا لعلم الله تعالى:

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ {المسد.

فقد أنبأ الله بأنّ ابا لهب سيصلى النار. وتُفسّر السورة بطريقتين

مشهورتين:

الأولى، أن الله تعالى قد كتب على أبي هب أنه كافر وأنه سيصلى النار، هو وزوجه، ولهذا فالله يعلم بعلمه الأزلي أن أبا هب في النار، وبذلك لا يكون لأبي هب ارادة في كفره أو ايمانه.

الثانية، أن الخيار كان لأبي هب في ايمانه، ولكن الله علم أنه لن يؤمن علماً أزلياً، وهذا الكلام يناقض نفسه، فعلم الله نافذ ولا يمكن أن "يكتب" الله على أحد أنه في النار، ثم يكون لذلك الإنسان ارادة حرة في أن يتجنب النار.

ولكن، لدينا طرح آخر يتوافق وفهمنا لعلم الله، قال تعالى:

{قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} ٢٦- يوسف.

وقد شهد الشاهد بما عرف، عن طريق خبرته، واستنتج وليس بما علمه وراه، فهو لم يكن حاضراً حين قدت امرأة العزيز قميص يوسف.

وقال:

{قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} ٥٦-الانبياء. وجمع الشاهد هو (شاهدون، شاهدين)، ولو كان الشاهد يعني من حضر الفعل ورآه بعينه، لعنت الآية أن إبراهيم كان حاضرا حين فطر الله السماوات والأرض، وذلك غير صحيح.

وقال:

{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ١١٧-المائدة. ومن يحضر الفعل يُسمى شهيدا، ولا يسمى شاهدا، فقد كان عيسى شهيدا على قومه حين حياته، فلما توفاه الله اليه، أصبح الله -لوحده من غير

عيسى - الشهيد عليهم، ولم يمكن لعيسى أن يكون عليهم شهيدا وهو متوفى.

وقال:

{وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} ٧٨- الانبياء. ويخبرنا الله تعالى في هذه الآية انه شاهد لحكم داؤود وسليمان، أي أنه تعالى خبير بهما لما علم من أعمالهما وصلاحهما وعلمهما.

وقال:

{إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} ١٤- فاطر.

{سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} ١١-الفتح.

في الآيتين السابقتين إخبار عما سيكون في المستقبل، فهل معنى ذلك أنه مكتوب عند الله منذ الأزل؟

يجيبنا الله تعالى في نفس الآيات (ولا ينبئك مثل خبير)، (بل كان الله بما تعملون خبيراً)، فالله يعلم هذه النتائج المستقبلية المترتبة على أفعال الناس، لأنه يعلم قوانين الكون الذي يعيشون فيه، ولأنه يعلم جميع الخيارات المتاحة لهم والتي يختارون منها، ولأنه يعلم ما فكروا به وما فعلوه من قبل، وكل تلك المعلومات وخبرته فيمن خلق جعلته خبيراً فيما سيفعلون وما قد يختارونه من المسالك، قال تعالى:

{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ١٤-الملك.

فالله خبير بالإنسان الذي خلقه، في ظل الكون الذي بدأه، وتحت حكم القوانين التي قدّرها. وبهذا المفهوم نستطيع القول أنّ أبا هب كان خيرا في أن يؤمن ويغيّر مصيره، وعلم الله بإصرار أبي هب على موقفه انها هو تعبير عن خبرة الله بعباده، خبرة تليق بعظمته، وليست كخبرة الإنسان التي قد تخطئ وتصيب، والتي ينقصها الدقة لأنها لا تستطيع معرفة جميع المعطيات المحيطة بموضوع معين. ولا يعني ذلك بأي حال من الأحوال أنّ مصير أبي هب كان مكتوبا منذ الأزل.

لا يمكن إغفال ما لإرادة الله ومشئته من تأثيرات على مفهوم الإرادة الحرة عند الإنسان. فإرادة الإنسان متعلقة، كما أفهمنا الفقهاء والفلاسفة المحمديون، بإرادة الله ومشئته. فهل أنّ ارادة الشر عندنا هي مما أراد الله؟ وهل أرادة القاتل بإرتكاب جريمة ما، ليست إلا تنفيذ لإرادة الله؟

علينا قبل كل شيء أن نُفرق بين الإرادة والمشئته، ودلالات كل منهما، ثم استخدامات كل منهما في التنزيل الحكيم.

الإرادة: مشتقة من الفعل (أراد)، وتدل على طلب الشيء، والرغبة به،
وتمنيه، وجعل الشيء غاية. وقد وردت الإرادة بهذه المعاني في التنزيل
الحكيم، قال تعالى:

{..وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا
مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا
الْفَاسِقِينَ} ٢٦-البقرة.

{..وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا
إِصْلَاحًا..} ٢٢٨-البقرة.

ففي الآية الاولى، دل فعل (أراد) على المقصد. فيما دلّ الفعل في الآية
الثانية على طلب الغاية.

وقد دلّت الإرادة الإلهية، في التنزيل الحكيم، ما دلت عليه الإرادة الإنسانية. فهي الإرادة التي لا تدخل حيّز عالم المادة، أي انها ذاتية وقد وردت في التنزيل الحكيم بمعنيين:

الأول: في الإشارة الى الإرادة الذاتية التي لا ترتقي الى مرحلة الفعل الموضوعي. أي أنها ارادة معنوية لم تدخل حيّز التنفيذ؛ قال تعالى:

{إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} ٤٥، ٤٦- التوبة.

أي أنّ إرادة الخروج (مع الجيش) لم تتبلور في عقولهم، فهم قد قرروا بإراداتهم الواعية ألا يخرجوا، ولو أرادوا الخروج فعلا، لأعدوا عدة الخروج واستعدوا، لكنهم لم يفعلوا ذلك أساسا.

{وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ
سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} ١٩-الاسراء.

وهذه الآية توضح بما لا يقبل الشك معنى الإرادة، فهي مفهوم ذاتي معنوي، ولا علاقة له بعالم المادة. فمن أراد الآخرة عليه أن يكمل إرادته بالعمل المادي الذي يؤهله للآخرة (وسعى لها سعيها)، والذي ينقل ارادته من حيز المعنوي الى المادي.

الثاني: استخدم التنزيل الحكيم فعل الإرادة في الأشياء التي يمكن أن تكون، او الأشياء التي يمكن أن تكون هكذا او هكذا، أي التي لم تدخل حيز الفعل المادي بعد وهي لا تخرج عن التعريف العام للإرادة؛ قال تعالى:

{وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ
بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} ٦٢-الأنفال.

{لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} ٤- الزمر.

فالآية الأولى تتحدث عما قد يحصل من البعض، وعما قد يفعلوه من
ارادة خداع النبي. والآية الثانية تصف لنا قدرة الله على تنفيذ ارادته
باصطفاء ولد مما يخلق لو أراد ذلك.

فالإرادة، واردة الله أيضا، تحتاج الى فعل لتداخل وتؤثر في العالم
المادي، وفي حيوات الناس وارااداتهم؛ قال تعالى:

{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ
إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} ١٠٧- هود.

تشير عبارة (فعَّال لما يريد) بأن ارادة الله تحتاج الى فعل منه تعالى
لتصبح نافذة، وفعل الله هو قوله "كُنْ"؛ {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ
يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ٨٢- يس. ونفاذ ارادة الله بقوله "كُنْ" انها

هي محددة بالكلمة اللاحقة "شيئاً"، فلا يخفى على المتفحص أنّ
"شيء" تشترك و "المشيئة" بأصل واحد "شاء"، وبذلك يكون معنى
الآية (إذا أراد الله أن يكون شيئاً [في عالم المادة]، يقول له كُن فيكون).
والإنسان حرٌّ - لا يتحكم الله به - فيما يريد، وفيما يطلب، وفيما
يرغب، وفيما يقصد ويتمنى، ما دامت تلك الأفعال ضمن فعل
الإرادة، أي أنها ذاتية معنوية.

ولربما عنت الفقرة السابقة عند البعض أن لهم حرية التفكير، ولكن
ليس لهم حرية التنفيذ؛ وذلك صحيح بمعنى من المعان. فالإنسان
مقيّدٌ بمشيئة الله. وقد اعتبر الفلاسفة المحمديون مشيئة الله مرادفة
لإرادة الله، وذلك غلط.

المشيئة: وهي الإرادة التي يرافقها فعل يتداخل مع العالم المادي، أو
فعلٌ يتمّ ضمن قوانين العالم المادي. وهو المعنى الذي وردت به في
التنزيل الحكيم؛ قال تعالى:

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ
الْجَاهِلِينَ} ٣٥- الانعام.

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا
أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} ١٠٧- الانعام.

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ
النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} ٩٩- يونس.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا تُنْم
جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا} ٤٥- الفرقان.

ففي الآيات السابقة نرى أن الكلام كان عن مشيئة الله لا عن ارادته،
وذلك لأن الإرادة تداخلت مع العالم المادي فأصبحت مشيئة تحتاج
الى تفاعل مع القوانين المادية. ولذلك فالمشيئة تعني الأخذ بالأسباب،
وليست تمنيا خاليا، قال تعالى:

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ٤- ابراهيم.

أي أنّ مشيئة الله في هدي وإضلال الناس متعلقة بالأسباب المادية التي وفرها الله والتي يهتدي الإنسان بها او يضل عنها. وكل ما يفعله الإنسان في هذه الحياة الدنيا هو داخل ضمن مشيئة الله، فالإنسان يشاء ويقوم بأفعاله ضمن هذا الكون المادي، والله هو من قنن قوانين هذا الكون وشاءها أن تكون كذلك، ولهذا فمشيئة الانسان لا بدّ أن تكون بعد مشيئة الله:

{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا} ٣٠- الانسان.

ولو قال الله تعالى (وما تريدون الا أن يريد الله)، لما كان للإنسان حريته التي لديه، ولما كان لحرية الإرادة وجود.

{وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ
لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ
تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} ٨٢-الكهف.

ولو أبدلنا فعل (أراد) في الآية السابقة بفعل (شاء)، فأصبحت (فشاء
ربك أن يبلغا أشدهما..). لعنى ذلك أن الله تدخل بفعل يتداخل مع
القوانين الكونية المادية، وعمل على أن يبلغ اليتيمان في الآية أشدهما،
أي أن اليتيمين كانا ليبلغا أشدهما حتى لو فجرنا فوق رأسيهما قبلة
نووية!

ويتضح الفرق في استخدام التنزيل الحكيم للإرادة والمشية، في آيات
اصحاب الجنة وآيات اصحاب النار. فأصحاب الجنة يشاءون دائما،
فيما يريد اصحاب النار ولا يشاءون. فكان أصحاب الجنة قد فعلوا
الفعل المادي في الحياة الدنيا، فأصبحت ارادتهم في الجنة مشيئة قد تم

فعلها. فيما أن مثل أصحاب النار كأنهم يتمنون تمنيا لأنهم لم يفعلوا في الدنيا ما لا يقدرّون على فعله في الآخرة؛ قال تعالى:

{لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا} ١٦- الفرقان.

{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ} ٣١- النحل.

بينما قال تعالى عن أصحاب النار:

{يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} ٣٧- المائدة.

فمشيئة الله تعالى سابقة لمشيئة الإنسان، ذلك أن مشيئة الإنسان تكون ضمن هذا العالم المادي، وبحكم قوانينه؛ القوانين التي شاء الله أن تكون هكذا. ولأن الإنسان لا يقدر على أحداث الفعل الا ضمن هذا العالم المادي، فكانت مشيئته تابعة لمشيئة الله. أما ارادة الإنسان فمفصلة عن ارادة الله تعالى، وذلك يدلنا الى حرية الإرادة الإنسانية. إرادة الله إرادة خيرة، وعادلة، ولو كانت ارادة الانسان متعلقة بإرادة الله لما اردنا الا فعل الخير. فالله يريد بالإنسان اليُسْر، ولكنّ الإنسان يقرر بعقله الواعي ما يريد بنفسه. والله يريد للإنسان سلوك طريق الرشاد، ولكنّ الإنسان يختار بعقله الواعي سلوك الطريق الذي يريد. والله لم يكتب على الإنسان أعماله منذ الأزل، وإنما كتب القوانين التي يستطيع الإنسان أن يقوم بأفعاله تحت ظلها، وقدّر تلك القوانين تقديراً دقيقاً؛ ولم يكتب تعالى أياً مما سبق بحبر على ورق، فهو لا يضل ولا ينسى. والله عالم بما فعل الإنسان، كما هو عالم بقوانين الكون الذي خلق، وبما قد يفعل الإنسان في أي لحظة من المستقبل، ولكنه يعلم

اختيار الإنسان لفعل دون آخر حين حدوثه، وليس قبلاً. وإنباء الله تعالى عن أفعال الناس في المستقبل إنما هو علم خبرة وليس علم تحقق. والإنسان حرٌ بسلوك الطريق التي يختار، وهو حرٌ بقدر الحرية التي اراد لنفسه، وطريقة العيش التي فضل. والمسؤولية جزء من حرية الإرادة، وحرية الإرادة شرط المسؤولية. والعقل هو منبع حرية الإرادة، ومادة الحرية هي العلم، زادت كلما زاد. والعقل يتكون من جزء مادي هو الدماغ، والذي يحتوي على جزأين يميزان الدماغ البشري عن غيره، هما: الفص الجبهي (القلب)، والجهاز النطاقي (الفؤاد)، يشكّل الجزء المادي من الدماغ النظام الذي يشغل بقية الجسم؛ وجزء العقل الآخر هو الروح، وهو الجزء الميتافيزيقي من العقل، وتقوم الروح مقام اللغة البرمجية التي كُتبت بها نظام الدماغ وتراكبت مع الجزء المادي لينتج العقل الإنساني الفريد، والمهياً للحرية، والإبداع، والتفكير في المستقبل. وكما أنّ الدماغ البشري جعل نوعنا البشري مميز على أسلافه من الحيوانات، فإنّ الروح ميّزت

الإنسان عن أسلافه من البشر. وهكذا أصبح الإنسان مهياً لحرية الإختيار، وحساب عواقب اختياراته، وبالتالي مهياً للتكليف، والقبول والرفض.

ولو عدنا قليلا الى فكرة السيد هاريس عن حرية الإرادة، لوجدنا أنه ليس مخطئاً جداً في حجته، ولكنه مخطئ في تقديمها على أنها حجة فلسفية. فهو يقول لو أنّ الزمن عاد بالإنسان لاختار الإنسان نفس الإختيار الذي اختاره في السابق، وذلك صحيح، لأن الزمن لو عاد بالإنسان الى الماضي لعادت معلومات الإنسان عن الحدث، نفس معلوماته التي كان يمتلكها عن الماضي أول مرة. أي أنّ الذي سيغيّر خيار الإنسان هو معرفته بنتيجة خياره المستقبلي، ولو عاد الزمن الى الوراء لعادت معلومات الإنسان كما كانت، وبذلك كان ليختار نفس الخيار. يقول هاريس في كتابه المذكور في معرض حديثه عن مجرمين قاما بجريمة قتل "وعلى الرغم من قباحة سلوك المجرمين، عليّ أن أقرّ بأنني لو كنتُ مكان أحدهما، ذرّة بذرة، سأكون هو: لا وجود لجزء

اضافيّ منّي بإستطاعته رؤية العالم بصورة مختلفة أو بإستطاعته مقاومة
النزعة لإلحاق الضرر بالآخرين. حتى ولو آمنت بأنّ كل انسان يحملُ
روحا خالدة، فإنّ مشكلة المسؤولية ستبقى: لا يُمكن أن أُحمدَ لأنّي لا
أملكُ روحَ مصاب باضطراب عقلي، فلو كنتُ حقا مكان
كوميسارنسكي في ٢٣-تموز-٢٠٠٧، بحيثُ كنتُ قد ورثتُ جيناته،
وعشتُ حياته، وكان لي دماغا (روحاً) مطابقا، وبحالة مطابقة-
لكنّ فعلتُ تماما ما فعله هو.^{٣٥}

ولكنّ الغلاف الفلسفي لحجة هاريس لا يجعلها صحيحة، فلو ورث
هاريس جينات المجرم، وعاش حياته، وكان له دماغه بحالته المطابقة،
لما كان هاريس هاريس، ولكان كوميسارنسكي. فقد بيّنا فيما سبق أنّ
الروح هي روح واحدة، ولا تختلف بين إنسان وآخر. وأنّ ما قاله
هاريس ليس له علاقة من قريب او من بعيد بمفهوم الروح، فلو كان
لزيج جينات هاريس، ولو كان زيدا قد عاش حياة هاريس، ولو كان

Harris, Sam. (٢٠١٢). Free Will. Free Press. ^{٣٥}

له دماغا مطابقا وبحالة مطابقة لدماغ هاريس، لكان هاريس، ولما كان زيدا مكان هاريس؛ وليس للروح -التي قلنا أنها تعمل مترابطة فوق الجزء المادي من المنظومة العقلية، وبذلك تتغير معه وتتأثر به، كلُّ روح بما توفر لها من مقومات التفكير والتعقل - التي تراكبت فوق الجزء المادي لعقل انسان ما، أن تعيّر من أفعال إنسان آخر اذا تراكبت فوق الجزء المادي من عقله، إلا إذا انتقل مع تلك الروح جميع الجينات والخبرات والمعلومات التي أثرت عليها عندما كانت في الإنسان الأول، ولا يمكن ذلك.

أما المسؤولية فهي جزء أصيل من الحرية، ولا حرية أو حرية إرادة بدون مسؤولية. فحرية الإنسان أمرٌ يتخلى عنه الإنسان بإرادته، غالبا، لتحصيل الإمتيازات. ولتتخيل الوضع التالي: أصدرت السلطات قانون ضرائب جديد، حيث يوجب هذا القانون أن يدفع المواطن نصف مرتبه، وتترتب عقوبات تبدأ بالغرامات وتنتهي بالسجن على كل من يتخلف عن تطبيق القانون الجديد. قد يجادل البعض بأن في

ذلك القانون تعدّ على حرياتهم، وذلك لأن اعطاء قدر كبير من المرتب يعني نقود أقل تبقى للمواطن، وبالتالي حرية تصرف أقل مما كان يملك المواطن عندما كانت تبقى عنده كمية أكبر من النقود. ولأن القانون مُلزم وفيه عقوبات فذلك يعني أن المواطن سيدفع مجبرا، ولو خيّرناه لكان يفضّل ألا يدفع وفق القانون الجديد.

ولكن، لنعد قليلا الى السلطة، فإن كانت سلطة منتخبة وشرعية، سيكون قانون الضرائب الجديد مجرد عاقبة لخيار سابق لذلك المواطن او غيره. ولو كانت سلطة متسلطة ديكتاتورية جاءت بالقوة، فقانون الضرائب، والسلطة كلّها، هي عاقبة لخيار المواطن أن يبقى في ذلك البلد؛ وإن كان لا يستطيع الانتقال الى بلاد اخرى لأسباب قاهرة، سيكون قانون الضرائب عاقبة خياره قبول تلك السلطة وعدم مقاومتها. وإن كان المواطن يرى في مفهوم الدولة ككل تعدّ على حريّته، فله حرية الانتقال والعيش مع مجتمعات البدو الرّحل. أمّا إن كان يرى في فكرة المجتمعات وما تحويه من تقييدات لحرية الأفراد

مشكلة لا يستطيع العيش معها، فله حرية ترك المجتمعات واللجوء الى قمة جبل، أو اعماق غابة. فالحرية والمسؤولية متلازمتان، ولا يمكن للإنسان ان يمارس حريته دون تحمل مسؤولية خياراته وعواقبها. أمّا الإرادة التي تحدثنا عنها بمفهومها المعنوي، فهي حرية مطلقة للإنسان ضمن هذا الكون، أي أنه لا حجة لأحد في تقييد ما يدور في عقولنا. وليس للمجتمع، أو الدولة، محاسبتنا على ما نفكر فيه ما دمنا لا نقوم بأفعال تترتب على تلك الأفكار. فلو فكرتُ أن أقتل زميلي المزعج باستخدام مطرقة دون أن أنفذ تلك الفكرة، لا يمكن لأي قانون في الدنيا أن يحاسبني على تلك الجريمة التخيلية، وإن فعل سيكون مجرد تسلط واعتداء غير مبرر ولا اخلاقي على حريتي المطلقة في التفكير. بينما يرى هاريس أنّ علينا حبس المجرم لئلا يقتل مرة أخرى، وليس كعقوبة على جريمة القتل التي قام بها. ولكن، ماذا عن الذي قتل مرة واحدة في موجة غضب انتابته؟ فهل نحن نحوّلين أخلاقيا في حبس ذلك الشخص الى الأبد لأنه قد يقتل ثانية في موجة

غضب أخرى، ولأن له قابلية أكبر من غيره على فعل القتل؟ وماذا عني أنا؟ فقد راودتني فكرة قتل زميلي، وأمامنا خياران: الأول أن يتم حبسي لأن لي قابلية أكبر على القتل ممن لم يفكر في قتل زميله ولو لوهلة لأن زميله مُزعج، ويكون حبسي لتجنب المجتمع جريمتي ولا يتم إطلاق سراحي حتى يضعني السجناء مع زملاء مزعجين ولا أفكر في قتلهم. والثاني، وهو الأكثر توافقاً مع فطرة الإنسان، أن تكون لي حرية التفكير والتخيّل، وأتحمّل مسؤولية فعلي فقط وليس مسؤولية أفكار العابرة. فيتم حبسي لمدة تتوافق مع الظروف المحيطة بجريمتي التي اقترفت، ومن المستحسن أن يتم "إعادة تأهيلي" خلال فترة الحبس، لأكون أكثر تسامحاً مع الإزعاج وأكثر تقبلاً للمزعجين من زملائي.

وكل ذلك من الحريات التي تناوها الفلاسفة وعلماء القانون والاجتماع والسياسة وغيرهم، وهي نسبية مرتبطة بنسبية الظروف الإنسانية التي يبحث فيها كل اختصاص وخصوصيات المجتمعات

الثقافية والاجتماعية. أمّا حرية الإنسان التي يجوزها لمجرد أنه إنسان، فتلك كاملة مطلقة في حدود هذا الكون المادي، وأمّا مغالطة "ماذا لو أني لم ارد أن أولّد في هذا الكون؟" فلو لم يولد صاحبها في هذا الكون وقوانينه لما كان انسانا من الذين يعيشون في هذا الكون ولكان شيئاً آخر، وبالتالي لاختلف مفهوم الحرية عما هو عليه عندنا. وتلك الحرية الكاملة المطلقة لا تعني أبدا حرية الفعل ثم الهروب من العاقبة، بل هي حرّية لأن للإنسان حرية الاختيار بين أكثر من خيار وفق العواقب التي تترتب على كل فعل؛ ولو لم يكن لنا أن نُفكر في العاقبة لما كنّا أحرار، ولإخترنا الخيارات ذات الأولوية، والتي غالبا ما تكون أفعالاّ تسد الحاجات الآنية دون الالتفات الى الضرر التي ستحدثه بنا وبغيرنا.

الفصل الثالث: العدل

تخرّجت دفعة من طلبة كلية الطب في جامعة من الجامعات. وكان بين اولئك الطلبة طالب حصل علامات أقل مما يؤهله للنجاح والتخرج بـ ٥ علامات. ولنفترض أنه لينجح في مادة الجراحة على الطالب أن يجمع ما لا يقل عن ٥٠ علامة من ١٠٠، فيما جمع ذلك الطالب ٤٥ علامة فقط. وكان ذلك الطالب هو الطالب الوحيد الذي لم تؤهله علاماته النجاح والتخرج، ولذلك فقد رأى مدرس المادة أن يهديه العلامات الخمسة التي يحتاجها فيتخرج اسوة بأقرانه ويصبح مثلهم طبيبا معترف به.

يطرح المثال السابق أسئلة عديدة منها:

- هل يستحق ذلك الطالب العلامات الخمسة التي ساوته مع

طلبة سهروا ليالٍ طوال لضمان استحقاق علاماتهم؟

- هل كان لمدرس المادة أن يقرر أنه من الأفضل إنجاح ذلك

الطالب وتخريجه ولو بغير استحقاقه؟

- هل آثار ونتائج قرار مدرس المادة وقف على ذلك الطالب

فحسب؟

سنجيب عن هذه الأسئلة، وغيرها، في خضم السير في هذا الفصل المخصص لشرح مفهوم العدل في الفلسفة الإسلامية ومقتضيات ذلك المفهوم. يتناسب العدل، كما نفهمه من كتاب الله تعالى، مع الطرح الأوسع للفلسفة الإسلامية. فالعدل، وهو أصل من أصول الفلسفة الإسلامية، يتكامل ولا يتعارض أبداً مع الأصل الآخر من تلك الفلسفة، وهو الحرية. لأن الله عادل، كانت الحرية؛ ولأن الإنسان حر، اقتضى عدل الله وجود العواقب.

اختلفت تعريفات العدل باختلاف تخصصات المفكرين والفلاسفة والعلماء والفقهاء الذين قدموها، ولكن غالبية تلك التعريفات تشاركت في ميزة واحدة، هي أنها جميعها ناقشت مفهوم العدل في

حالة معيّنة ووضع خاص. أما المحمديون، فقد كان تعريفهم للعدل جزء من تفسيرات آيات التنزيل الحكيم والحديث على ضوء الفلسفات السابقة، وثنية ومسيحية. وقد خلط المفسرون بين القسط والعدل خلطاً جعل اللفظين مترادفين في أعين الكثيرين. وعلى الرغم من أن معاجم اللغة لا تعطينا فرقا واضحا بين العدل والقسط، وتعرّف أحدهما بالآخر؛ إلا أن ذلك لا ينفي حقيقة أنها لفظان غير مترادفين.

وردت لفظة "عَدَلٌ" ومشتقاتها في التنزيل الحكيم بمعان تعود كلها الى أصل واحد، وهو المساواة، قال تعالى:

{وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} ١٢٣- البقرة.

{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَهَوًّا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ

وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدِلْ كُلَّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ
أُبْسِلُوا بِهَا كَسَبُوا هُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ {٧٠-الانعام.

والعدل هنا لا يخرج عن معنى الأصل وهو بمعنى الفدية، واختلاف
العدل عن الفدية هو شرط مساواته للمفدي له، بخلاف الفدية.

وقال تعالى:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} ١-الانعام.

{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ
مَعَ اللَّهِ بَلٌ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} ٦٠-النمل.

وهنا أيضا جاء العدل بمعنى المساواة، والمساواة في هذه الآيات مساواة باطلة، وهي مساواة بين أمرين لا يستويان. فالذين ظلموا يساوون بين الله وبين ما جعلوا له من شركاء.

وقال تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} ٥٨- النساء.

{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} ١٨١- الاعراف.

{فَلِذَلِكَ فَادُعْ وَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} ١٥- الشورى.

وهنا العدل في الحكم والتعامل مع الناس، ولا يعني العدل في أيّ من هذه الآيات "القسط" فالقسط أمر مختلف تماما عن العدل، وإحلال القسط محل العدل يكون ظلماً في بعض الأحيان.

وبذلك يكون تعريف العدل في الفلسفة الإسلامية: هو المساواة بين كينونتين، ذاتيتين كانتا أو موضوعيتين، متساويتين في صفات معيّنة تتعلق بوضع معيّن؛ والتفريق بين كينونتين، ذاتيتين أو موضوعيتين، مختلفتين في صفات معيّنة تتعلق بوضع معيّن.

ففي المثال المذكور بداية الفصل، أوجب العدل أن يساوي الأستاذ بين جميع الطلبة. فهم متساوون من حيث كونهم طلبة عليهم أن ينالوا العلامات بإستحقاقهم، و خمس علامات فاصلة عن النجاح مشابهة لعشرة علامات فاصلة عن النجاح من حيث أنّ الطالب لا يستحق النجاح في كلتي الحالتين. واقتضى العدل أن يفرّق الأستاذ بين الطلبة من حيث أنّ الطالب الذي لم يدرس كما درس أقرانه لا يستحق أن ينجح ويتخرج كما نجحوا هم بإستحقاقهم.

أما القسط: فمفهوم أضيّق من العدل، وهو يسير بإتجاه واحد فقط دون قيد أو شرط، ويعني المساواة بين كينونتين، موضوعيتين، بغض النظر عما إذا تساوتا في صفات معيّنة أو اختلفتا.

قال تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلُؤُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} ١٣٥- النساء.

{سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرَّوكَ شَيْئًا وَإِن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} ٤٢-

المائدة.

{وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ
وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا
قُتِلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ
وَصَاحِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ١٥٢- الانعام.

{وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} ٨٥- هود.

فقد وردت لفظة القسط بمعنى المساواة، (قوامين بالقسط.. ولو على
انفسكم او الوالدين أو الأقربين إن يكن غنياً او فقيراً) فحتى وان كنا
نرى اختلافاً في انفسنا أو في عائلاتنا او اقاربنا عن غيرنا، وإن كنا نرى
اختلافاً بين الغني والفقير، يبقى القسط هو الشهادة بالحق. (وإن
حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين) وهذه الآية في
الحكم بين اهل الكتاب، فعلى الرغم من أنهم لديهم كتبهم التي
يحتكمون اليها، وعلى الرغم من اختلافهم عن اتباع النبي محمد، إلا

أن الحكم يجب أن يكون بالقسط حكماً متساوياً بين الناس. (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط)، (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس..). فليس ذا أهمية انتهاء الذي نكيل له، ولا دينه، ولا حالته المادية أو الاجتماعية؛ فإعطاء الناس نصيبهم من الشهادة، والكيل، من مقتضيات القسط.

ويكون القسط بذلك فرعاً من العدل، فهو يساوي بين الناس من حيث أنهم ناس، ولا يعطي اعتباراً للاختلافات الاجتماعية والمادية والثقافية. بينما العدل، بمفهومه الواسع، يقتضي انزال كل أمر منزله. والعدل هو الأساس الذي يعمل ضمن حدوده القسط، فالعدل يشمل المفاهيم الذاتية والموضوعية، فيما يقتصر القسط غالباً على الأمور المادية والتعاملات بين الناس.

العدل الإلهي

يرى القديس (اوغسطين) أنّ علم الله الأزلي بأفعال الانسان وخياراته لا يتعارض مع حرية الإرادة والاختيار. وبذلك يكون الله عادلا في معاقبة الانسان على سيئاته وجزاءه على احسانه.^{٣٦}

وقد تبنى الكثير من الفلاسفة المحمديين رأي القديس اوغسطين المتوفى سنة ٤٣٠ للميلاد. فلا يرى القائلون بذلك الرأي تناقضا بين علم الله الأزلي وحرية الإنسان. فهم يقولون أنك اذا قررت سلوك طريق معيّن وسلكته، فالله يعلم ذلك مسبقا، وأنك لو قررت سلوك طريق معيّن ثم عدلت عن ذلك، فالله يعلم بقرار سلوك الطريق وقرار العدول عنه أيضا. ويذكرنا ذلك برأي سام هاريس، فهو يرى أن الدماغ-بما يكونه من جينات وتجارب- هو ما يقرر أن تسلك طريقا ما، وهو من يقرر أن تترك ذلك الطريق وتختار غيره، وفي الحاليتين فإن قرارك كان محتّمًا عليك منذ الأزل.

^{٣٦} St. Augustinus. (١٩٥٥) The Problem Of Free Choice. Westminster, Maryland: The Newman Press. ١٤٢-١٥٢.

ولكن لو كان الله تعالى يعلم منذ الأزل، كما يرى القديس اوغسطين ومن وراءه، خيارات الناس المستقبلية خيارا خيارا، فذلك يعني أننا نسير بصورة خطية نحو ما سيكون، وذلك شبيه بالحتمية السببية. وإن كان ذلك كذلك، فهل من العدل أن نُعذب أو نُجازى على ما لا يمكننا تغييره؟ يحتج المدافعون عن ذلك الرأي بأنَّ مستقبلنا محدد لله فقط، ولكننا، وبما أننا لا نعلم مستقبلنا، سيبقى مستقبلنا بالنسبة لنا غير محدد ويقبل جميع الاحتمالات. ولنتخيل أن والدتك أعدت لك غداءك ووضعت في علبة وغلفت العلبة بكيس، فبالنسبة لوالدتك يوجد في العلبة، التي أعدتها، قطعة خبز وقطعة دجاج. أمّا بالنسبة لك ففي العلبة كل شيء يمكن للعلبة اتساعه، وليس فيها شيء، فقد يكون فيها لحم بقر، او حساء الخضار، او أن تكون والدتك قد نسيت وضع الطعام في العلبة والعلبة فارغة؛ لكنك لن تعرف ما في العلبة، ولن يكون في العلبة خبز ودجاج حتى تقوم بفتح العلبة وترى الخبز والدجاج. ولكن ماذا لو كنت لا تأكل الخبز والدجاج؟ فوالدتك

تعرف مسبقاً بأنك لا تأكل الخبز والدجاج، وأنت ستبقى جائعاً دون طعام، فلماذا اذن تحمّلت والدتك عناء اعداد الطعام الذي تعرف مسبقاً أنك لن تأكله؟ أو فعلاً كان أمامك كل خيارات الطعام، مما يمكن للعبة الاتساع له، أم أنّ الحقيقة هي أن ما كان ينتظر في العلبه منذ أخذتها هو الخبز والدجاج؟

فعلم الله علم حق ولا يمكن أن يكون لنا خيار غير ما علم الله أنه سيكون. ولذلك نرى أنّ علم الله بتفاصيل خياراتنا ليس عادلاً، لأننا لا نستطيع الخروج عنه، وبذلك نكون غير أحرار، وينتفي العدل عن عقابنا او جزاءنا.

فعدل الله يقتضي أن نكون احرارا حرية مطلقة فيما نريد، وأحرارا حرية مقيدة بقانون الكون فقط فيما نشاء. والحديث عن عدل الله يستدعي سؤالاً قديماً عن رحمة الله: لماذا لا يتدخل الله لإنقاذ المساكين الأبرياء؟

واجابة هذا السؤال تجيب عن الاسئلة التي طرحناها بداية الفصل حول المثال المذكور حينها. إن من مقتضيات عدل الله وضعه قوانين الكون وتقديرها بدقة تامّة، ولولا وجود تلك القوانين الكونية الدقيقة لما استطاع بنو الانسان فهم طريقة عمل الكون ومفردات وجوده، ولما استطاعوا الاستفادة من القوانين التي اكتشفوها، ولما استطاعوا فهم الأمراض والعلاجات.. الخ. فلو توجه نيزك نحو الأرض، وكان اصطدامه بالأرض محتم وفق الحسابات العلمية الدقيقة، وكانت حصيلة اصطدامه بسطح الأرض عشرة الاف قتيل؛ وقرر الله، لأنه رحيم، أن اولئك الناس ابرياء لا يستحقون الموت بتلك الطريقة وتدخل بصورة تحرق جميع القوانين التي درسها العلماء والمعادلات الرياضية التي لا تنظم حركة النيازك والكواكب وحسب بل تنظم اساسيات علوم عديدة اخرى؛ فهل ذلك عادل؟ هل خرق القوانين التي نعيش وفقها عادل لبقيتنا؟

يتدخل الله لانتقاذ عشرة الاف انسان، ويبقى العلم حائرا فيما حصل.
ويتخلى العلماء عن معادلات علمية صحيحة سليمة قادت الجنس
البشري نحو تطور ما كان ليكون دونها.^{٣٧} وهل كان تدخل الاستاذ
لإنجاح طالب كلية الطب عملا عادلا؟ ولنضع في حسابنا أن
العلامات الخمسة التي اهداها الاستاذ للطلاب لم تكن أمرا شاقا
عليه. وعلينا أن نضع في حسابنا شعور طالب آخر كان يمكن أن
يكون الأول على دفعته لو أن الاستاذ أعطاه هو الآخر خمس
علامات.

^{٣٧} ينبغي الإشارة الى أن فكرتنا عن العدل الإلهي في تلك المواقف لا تقتصر على انتقاذ الأبرياء فقط، وانما تتعداها لترفض أيّ إدعاء لمعجزات وخوارق للطبيعة من تلك التي تنقض الأسس العلمية الراسخة. وبقيننا الثابت بأن كل ادعاء لمثل تلك الخوارق -بعد نزول (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)- انما هو دعوى باطلة فارغة تتأرجح بين أمرين لا ثالث لهما: ١- أمر لم يسع العلم تفسيره بأدواته المتوفرة. ٢- وأمر قد فسره العلم مسبقا إلا أن مدعيه ما زالوا يصرون على الترويج له مستغلين جهل العوام. وإن أي معجزة بعد ختم الرسالات وتمام الدين لا تقدّم، للعقلاء، إلا نقضاً لمفهومي العدل الإلهي واستخلاف بني آدم.

ويبين الله لنا حقيقة هذه الاشكالية (اشكالية ما يحصل للناس في الدنيا، وتهربهم من تحمل المسؤولية والقائها على مشيئة الله و ارادته) بايتين تكمل احدهما الأخرى:

{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتِنُونَ * .. ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ} ٤١، ٣٦- الروم.

ليس تدخل الله لإنقاذ الأبرياء عادلا، وأي "معجزة" هي خرق لقوانين الوجود التي علينا فهمها واكتشافها، وهي نقض صريح لكلام الله الذي بُنيت عليه فلسفة الاسلام {..اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام

دِينًا.. {٣- المائدة. فقد ترك الله الإنسان لنفسه، وعقله الذي اكتمل
ماديًا ومعنويًا، وما عليه الا أن يستخدمه ويكتشف القوانين التي
تسهل حياته وتقربه الى فهم الكون الذي يعيش فيه {قُلْ سِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخُلُقَ ثُمَّ اللَّهُ يُشِئُ الشَّأَةَ الْآخِرَةَ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ٢٠- العنكبوت. ويتجلى العدل
الاهي في أمرين:

١- حرية الانسان في التفكير والاختيار.

٢- والقانون الاهي الذي ينظم حرية الانسان، القانون العواقي

لأفعال الإنسان: {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا

سَعَى * وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ

الْأَوْفَى} {٣٩-٤١- النجم.

ولا يختلف العدل الاهي عن التعريف الذي قدمناه للعدل، فهو

المساواة بين الكينونات المتساوية، والتفريق بين الكينونات المختلفة.

وقد وردت لفظة "الظلم" ومشتقاتها، وهي نقيض العدل وضده، في آيات عديدة للدلالة على أن عقاب الناس في الدنيا والآخرة على أفعالهم ليس ظلماً لهم، بل جزاءً على ظلمهم.

قال تعالى:

{فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} ٥٧-الروم.

{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ} ٢٢-
الصفافات.

{فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} ٥٤-يس.

ولو ساوى الله بين العلماء والجاهلين، وبين الباحثين عن الحق وراكبي الباطل غرورا، وبين المحسنين والمجرمين؛ لكان ذلك ظلماً، ولما بقي

معنىً لمفهومي الثواب والعقاب، ولأصبح مفهوم العدل عند الله كمفهوم العدل عند استاذ مادة التشريح في مثالنا، وذلك لا يصح.

ومن مقتضيات العدل الإلهي أن ينال الإنسان فرصة مساوية لفرص غيره من الناس، دون اشتراط اعترافه بالله خالقاً ومعبوداً. فالعدل الإلهي يقتضي التعامل مع الناس من حيث أنهم متساوين بالإنسانية، أي التعامل معهم بالقسط وبذلك تكون فرصهم متكافئة.

قال تعالى:

{كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} ٢٠-الاسراء.

فليس عطاء الله حكراً على المؤمنين به، وليس عطاءه ممنوعاً عن الكافرين. وإلا لكان في ذلك تضييقاً على حرية الناس في أن يؤمنوا أو يكفروا. ثم يتبع عدل الله رحمته، فليس للإنسان الإدعاء باستحقاق

كل ما حصل عليه، وليس كل ما يتجنبه الإنسان من عقاب يُجنبه لأنه لا يستحقه. وكما أن الله قد كتب على نفسه الرحمة بالناس وبعد العدل، قدّم رحمته على عقابه {وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ١٠٢- التوبة. فقد دعا الله الناس ورغّبهم بالرحمة والعفو، وحثّهم على الرحمة والعفو حتى مع ثبات حَقهم واقتضاء العدل أن ينالوا نصيبهم، من مؤخر النساء عند الطلاق، أو دية اهل القتل التي اقتضى العدل ان يؤديها القاتل.

{وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرْصَفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ.} ٢٣٧- البقرة. ٣٨

^{٣٨} تتحدث الآية عن الذين يطلقون نساءهم بعد أن خصصوا لهم فريضة او ما يُسمى "المؤخر"، ولم يمسوا النساء بعد، أن عليهم أن يعطوهم نصف ما اتفقوا عليه، إلا اذا تنازلت المرأة أو وكيلها عن ذلك الحق.

{..فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَحِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ

بِإِحْسَانٍ..} ١٧٨-البقرة. ٣٩

نفهم من كل ما سبق أن نموذج القديس اوغسطين، ومن وافقه، في علم الله لا يتوافق مع العدل الإلهي، لأن علم الله بتفاصيل خياراتنا منذ الأزل يعني ثبات خياراتنا منذ الأزل، وبالتالي ثبات عاقبة تلك الخيارات، الدنيوية والأخروية، وذلك بعيد عن مفهومي الحرية، والعدل الالهي، وبالتالي بعيد عن الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء.

تبقى ملاحظة اخيرة يعتد بها من يوافق نموذج القديس اوغسطين عن علم الله، وهي أنهم يقولون ان علم الله ازلي ولا يؤثر على حرية الانسان لأن الله تعالى فوق الزمن الذي هو من خصائص كوننا

^{٣٩} الحديث في هذه الآية عن دية القتل الخطأ التي يؤديها القاتل الى أهل القتل. والعفو هنا قد

يعني تقسيط المبلغ المتفق عليه، او تقليله، او التنازل عنه.

المادي. ونحن نتفق معهم في أنه تعالى لا يحتكم الى ما نحتكم اليه من
قوانين لأنه خالقها، ولكن تقتضي الضرورة ان يتعامل معنا فيما
نفهمه، وحتى نصل الى مفهوم واضح صلد عن معنى الحياة بلا زمن
لا يسعنا أن نفسر الا بما نفهمه، لا بما ندّعي أننا نفهمه من دون
الناس.

العدل بين الناس

العدل كمفهوم معنوي يدخل في التعاملات المادية بين الناس. ولأنه يتعامل مع الماديّات، فإن العدل بين الناس غالباً ما يدل على القسط. فتعاملات كالشهادة وإعطاء كل انسان نصيبه، سواء أكان المعطي فرداً أو مؤسسة، تقتضي معاملة الناس بصورة متساوية من حيث أنهم ناس. وليس لصلة القربى، والحالة المادية والاجتماعية تأثير في اعطاء كل انسان نصيبه. فمن حيث أن الناس متساوون، يجب معاملتهم بالقسط؛ ولكن من حيث اختلافاتهم في حالات معيّنة وأوقات معيّنة، يجب معاملتهم بالعدل.

ولنأخذ مثال ذلك قاضي يحكم على ثلاثة اشخاص ارتكب كل منهم جريمة مشابهة للآخر بجميع تفاصيلها. وكان المجرم الأول ذكراً بالغاً ضخماً الجثة قوي البنية، وكان المجرم الثاني ذكراً لم يصل سنّ البلوغ ذا جسم عليل ضعيف، وكان المجرم الثالث أنثى مسنة تعاني من مرض مزمن. وكان المجرمون الثلاثة متشابهين من حيث القدرة

العقلية والخلفية المادية والمعرفية. فمن حيث أنّ الجريمة متساوية، وأنّ المجرمين الثلاثة متساوون بالإنسانية، يجب على القاضي أن يحكم على الثلاثة بالقسط، فيعاقبهم ثلاثتهم على جرائمهم. ولكن، من حيث اختلاف المجرمين الثلاثة في قدراتهم على تحمّل العقوبة - فراضين أنّ العقوبة ليست الموت - فعلى القاضي ان يحكم بينهم بالعدل، أي أن يضع في حسابه عدم بلوغ وضعف المجرم الثاني، وأن يضع في حسابه مرض المرأة المسنّة، وبذلك لا تكون عقوباتهم متساوية.

ولنأخذ مثالا لإختبار مفهومَي العدل والقسط في الفلسفة الاسلامية: سقطت طائرة على متنها ثلاثة ركّاب على جزيرة صغيرة ليس فيها ما يمكن أكله، وبدأ الثلاثة بعد اسبوع من نفاذ طعامهم بالتصوّر جوعاً. وبدأ يغمى عليهم، وعلموا أنهم شارفوا على الموت. اتفقوا أن يجروا قرعة والخاسر يُقتل ويصبح غذاءً للأخرين على أمل وصول المساعدة. وتقارعوا وخسر أحدهم فقتله الأخران. بعد أيّام عاشوا

فيها على لحم صاحبهم تم انقاذ الراكبين الاثنين، وعادوا الى ديارهم ومثلوا أمام القاضي، ثم قصّوا عليه ما جرى بالتفصيل. ما هو الحكم العادل على الراكبين، آخذين بنظر الاعتبار اضطرارهم لقتل صاحبهم، وموافقته على ذلك؟

أولاً: فالتوسط يقتضي معاقبة الاثنين على جريمة القتل من حيث: انّ القتل بغير حق جريمة، وكل جريمة تستوجب العقوبة؛ وأنّ الركاب الثلاثة متساوون في الانسانية ولم يكن أحد منهم ذو فضل على الآخر. ثانياً: يقتضي العدل أن ينظر القاضي الى الظروف المحيطة بالجريمة: فهما، القاتلين، كانا مضطرين لارتكاب جريمتها ولما فعلاها لو توفر لهما خيار آخر؛ وقد وافق القتل على أن يقتلاه اذا كان هو الخاسر، وكان مستعدا لقتل أحدهما لو أفضت القرعة الى نتيجة اخرى. وبذلك لا يكون القاتلين في هذه الحالة كأبي قاتل آخر، ويجب معاملتهما على هذا الأساس.

ولنأخذ مثلاً آخر من حياتنا الواقعية: هل للمرأة حق في أن تكون إماماً للمصلين، أو فقيهة في الدين تدرّسه وتجيّب عن أسئلة الدارسين؟^{٤٠}

وكذلك نأخذ هذه المسألة من منظور العدل ومن منظور القسط: فمن منظور القسط، للمرأة الحق الكامل في كلّ ما تؤهلها انسانيته لها وبصورة لا تختلف أبداً عما هي عليه للرجل. وبذلك يكون للمرأة الحق الكامل في إمامة الصلاة وطلب العلوم الدينية التي تؤهلها لتعليم الناس وقيادتهم دينياً. أمّا من منظور العدل، فليس لكل امرأة ذلك، أي أنّ استحقاقها لتولي الإمامة لا يختلف عن استحقاقها لنيل أي منصب آخر، يجب أن يكون قد بُني على مقوّمات علمية وفكرية متينة، والعدل يقتضي أن يُفضّل رجل عالم فطن على امرأة جاهلة

^{٤٠} اخترنا هذا المثال لأن البعض لا يزال يناقش ويبحث ويشكك في امكانية ذلك الأمر، أي امامة المرأة، وخصوصاً من أهل الصنعة من الذكور الذين احتكروا الحديث في الدين لأنفسهم وأدخلوا في بعض حلقاتهم النساء اللاتي قبلن التخلي عن حقوقهن. أمّا أولئك الذين ما زالوا يجادلون في حق الإناث في التعلم، وتولي المناصب الإدارية والرئاسية، وغير ذلك، فيحتاجون الى اعادة تأهيل عقلية ترتفع بعقولهم الى المستوى الإنساني.

بليدة، كما يقتضي تفضيل امرأة عاملة فطنة على رجل جاهل بليد. ولو
أنّ الناس اختارت امرأة لتولي منصبا معيناً على الرغم من عدم أهليتها
لتولي ذلك المنصب، فذلك يكون ظلماً يترتب عليه الكثير من الإضرار
بمصالح الناس. ولذلك فالتسوية لا يمكن اطلاقه في جميع الحالات،
أي أنّه من غير المعقول، وغير العادل، المساواة بين جميع الناس في جميع
الحالات. والعدل ألاّ نفرق بين المتساويين، وألاّ نساوي بين
المختلفين.



يرى معتقو الفلسفة العواقبية^{٤١}، وما تمخض عنها كالفلسفة النفعية^{٤٢}، أن المقياس الصحيح لمدى صلاحية فكرة أو فعل ما هو عاقبته، او مقدار النفع الذي يجلبه للناس. فالفعل المقبول اخلاقياً في مثال ركّاب الطائرة الثلاثة هو قتل الراكبين للراكب الثالث لكي يعيشا، أي أنّ موت احد الثلاثة في سبيل الباقيين أمرٌ مبرّرٌ أخلاقياً. فهل العدل في الفلسفة الاسلامية يتبع ما يرى أصحاب الفلسفة النفعية او العواقبية؟

والجواب هو لا، هنالك بعض القيم الأخلاقية في الفلسفة الاسلامية تخضع لقوانين المذهب النفعي، ولكن ليس العدل. العدل كما بيّنا هو أصلٌ من اصول الفلسفة الاسلامية ولا يمكن أن تكون الأصول تابعة للعواقبية او النفعية التي يقدرها الناس بحسب ظروفهم وتوجهاتهم. فالحرية والعدل أصلان اساسان في الفلسفة الاسلامية،

^{٤١} فلسفة تقضي بقياس فضيلة الافعال بالعاقبة التي تُنفي اليها تلك الأفعال.

^{٤٢} فلسفة تدعو الى تحقيق أكبر قدر من المنفعة لأكثر عدد من الناس، ولو على حساب الأقليات. بدأت مع الإنجليزي جيريمي بنتم.

وبذلك لا يمكن أن يكونا خاضعين إلا لفلسفة الضرورة الحتمية^{٤٣}.
فهما ضرورتان بذاتهما، ولا يمكن أن يجعلها الله مسألتين نسبيتين. فلا
يمكن تبرير قتل شخص بريء واحد لأجل انقاذ عشرة آخرين، ومع
أن مقتل العشرة أمر مؤسف، إلا انه لا يجعل من قتل البريء الواحد
أمر جيد. والفلسفة النفعية هي مرتع جميع الدكتاتوريين والطمغاة
ومجرمي الحرب. أما العدل فأمر صالح بذاته، وليس العدل صالحا
لأن الله أمر به، ولكن الله أمر به لصلاحه وأهليته لقيادة حياة الناس.

قال تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ
عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا
فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ
تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَهُ يَمَعَكُمْ خَيْرًا} ١٣٥ - النساء.

^{٤٣} أشهر روادها الفيلسوف الألماني إمانويل كانت. وتقضي أن القيم الأخلاقية تتراد لذاتها
وليست للنتيجة المترتبة عليها. فالكذب رذيلة في جميع الحالات، ولا يمكن أن يكون فضيلة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} ٨-المائدة.

فليس فقر أو غنى الناس شرطا للعدل، وليس قربهم عنّا أو بعدهم
شرطا للعدل، وليس كرهنا لهم دافعا لئلا نعدل. فالعدل يُراد لذاته،
لأن إحلال العدل فيه من المصلحة التي قد لا يراها الناس ما يزيد عن
جميع المنافع الوقتية الآنية التي يسعى لها الظالم. أما وقد قيل ذلك،
فلا بدّ من التذكير أن هنالك بعض القيم الأخلاقية التي تحتكم الى
المذهب النفعي وليس الى الضرورة الحتمية، ونأخذ مثال ذلك
التجسس:

فالتنزيل الحكيم يأمر المجتمع الإيماني بصراحة بألا يتجسسوا {.. وَلَا
تَجَسَّسُوا..} وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ {١٢-
الحجرات. فهل يعني ذلك أنّ التجسس أمر لا اخلاقي بكل

أشكاله؟ بالطبع لا. فلأجهزة الدولة المخولة التجسس على العصابات وشبكات الإجرام للحيلولة دون ارتكابهم جرائم تضر المواطنين الأمنين، ولكنّ تجسس المواطنين على بعضهم البعض أمر لااخلاقي، لإنتفاء الحاجة الى تبريره والمنفعة التي جعلته متاحا، وكذلك تجسس الحكومات على مواطنيها لتثبيت سلطتها والتخلص من معارضيها؛ ولذلك فقد أتبع الله تعالى الأمر بعدم التجسس ب (اتقوا الله) فعلى السلطات تقوى الله في تقديرها مدى المنفعة التي تعود على المواطنين من فعل التجسس على أفراد أو مؤسسات معيّنة، وعليها تقوى الله في استخدام المعلومات الخاصة التي قد تحوزها خلال عملية التجسس. وتقوى الله هنا تعني تجنب ظلم الناس باستخدام المعلومات في غير الأسباب التي أباحت جمعها.

أمّا استخدام شعار الفلسفة النفعية "منفعة أكثر لعدد أكبر" في مفاهيم أساسية تعتمد عليها حيات الناس، ليس إلا محاولة لجمع أعداد أكبر من الناس لخدمة هدف معيّن. ومن ذلك اساليب الخداع في

دَعَوَاتِ الْمَوْسَسَاتِ الدِّينِيَّةِ لِلإِلْتِحَاقِ بِهَا، فَالْكَذِبُ مُبْرَرٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ الْمَوْسَسَاتِ لِأَجْلِ جَمْعِ عِدَدِ أَكْبَرٍ مِنَ الْمُؤَيِّدِينَ. فِيمَا تَسْتَهْدَفُ الفِلسَفَةُ الإِسْلامِيَّةُ النَّاسَ أَفْرَادًا وَتَدْعُوهُمْ إِلَى رَفْعِ مَسْتَوَى التَّفْكِيرِ العَقْلِيِّ وَالْحَسَنِ الأَخْلاقِيِّ لِلْفَرْدِ، لِيَكُونُوا بَعْدَ ذَلِكَ كِبَنَاتِ بِنَاءِ المَجْتَمَعَاتِ.

وَلِكُلِّ ذَلِكَ، فَالعَدْلُ قِيَمَةٌ مَطْلُوقَةٌ صالِحَةٌ بِذَاتِهَا، لَا تَحْتَاجُ إِلَى ظُرُوفٍ تَجْعَلُهَا صالِحَةً، وَليسَ فِي الظُّلْمِ، غِيَابُ العَدْلِ، مَنفَعَةٌ إِلا لِقَصِيرِي النَظَرِ. وَالعَدْلُ أَحَدُ الأَصْلِيِّينَ الذِّينَ نَرَى أَنَّ الفِلسَفَةَ الإِسْلامِيَّةَ تَقُومُ عَلَيَّهَا، وَبَعْدَ اعْتِبَارِ هَذَيْنِ الأَصْلِيِّينَ، يَمْكَنُنَا أَنْ نَتَوَجَّهَ إِلَى مَنَاقِشَةِ الأُمُورِ الَّتِي لَا تَقُومُ بِدُونِ الحُرِّيَّةِ وَالعَدْلِ، كالأَعْمَالِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالعَوَاقِبِ المُرْتَبَةِ عَلَيَّهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ.

قائمة المراجع

- ١- Harris, Sam. (٢٠١٢). Free Will. New York: Free Press.
- ٢- St. Augustinus. (١٩٥٥)The Problem Of Free Choice. Westminster, Maryland: The Newman Press.
- ٣- الأشعري، أبو الحسن. (١٩٩٥). اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع. القاهرة: مطبعة مصر.
- ٤- بدوي، عبد الرحمن (١٩٨٤). موسوعة الفلسفة ج ٢. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

المحتويات

١	مقدمة.....
١٤	الفصل الأول: الدين.....
٢٥	الفصل الثاني: الحرية.....
٣٣	الجزء المادي من العقل: الدماغ.....
٥٦	الجزء الميتافيزيقي من العقل: الروح.....
١٠١	الفصل الثالث: العدل.....
١١١	العدل الإلهي.....
١٢٣	العدل بين الناس.....
١٣٤	قائمة المراجع.....
١٣٥	المحتويات.....

تَرْجَمَةُ بَعُوٍّ (اللَّهُمَّ)

